محمود درويش

الديوان

الأعمال الأولى 1





رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

محمود درويش

الديوان

الأعمال الأولى ١





Twitter : @ketab_n

محمود درويش

الأعمال الأولى ١

محمود درويش

الأعمال الأولى ١



AL-DIWAN
1

(Poems)
By Mahmoud Darwich

First Published in June 2005

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21105 0

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٥

المحتويات

أوراق الزيتون
١٩٦٤

إلى القارىء

الزنبقاتُ السودُ في قلبي
وفي شَفَتي ... اللهبْ
من أي غابٍ جئتِني
يا كلَّ صلبانِ الغضبْ؟

بايعتُ أحزاني ..
وصافحتُ التشردَ والسّغَبْ
غضبٌ يدي ..
غضبٌ فمي ..
ودماءُ أوردتي عصيرٌ من غضبْ!
يا قارئي!
لا ترجُ مني الهمسَ!

لا ترجُّ الطربْ

هذا عذابي ..
ضربةٌ في الرمل طائشةٌ
وأُخرى في السُحُبْ!
حسبي بأني غاضبٌ
والنارُ أولُها غَضَبْ!

ولاء

حملتُ صوتكَ في قلبي وأوردتي
فما عليك إذا فارقتَ معركتي
أطعمتُ للريح أبياتي وزخرفها
إن لم تكن كسيوف النار .. قافيتي!
آمنت بالحرفِ .. إما ميتاً عَدَماً
أو ناصباً لعدوّي حبلَ مشنقتي
آمنت بالحرف ناراً .. لا يضير إذا
كنتُ الرمادَ أنا .. أو كان طاغيتي!
فإن سقطتُ .. وكفي رافع علمي
سيكتبُ الناس فوق القبر:
«لم يَمُتِ»

نشيد ما

عَسَلٌ شفاهكِ، واليدانْ
كأسا خمور ..
للآخرين ..

*

الدوح مروحةٌ، وحرشُ السنديانْ
مشط صغير
للآخرين ..
وحرير صدرِك، والندى، والأقحوانْ
فرش وثير
للآخرين ..

*

وأنا على أسوارك السوداء ساهدْ

عَطَشُ الرمالِ أنا .. وأعصابُ المواقدْ!
من يوصدُ الأبوابَ دوني؟
أي طاغية ومارِدْ!!
سأحب شهدكِ ..
رغم أن الشهدَ يُسكب في كؤوس الآخرين
يا نحلةً
ما قَبَّلتْ إلّا شفاه الياسمينْ!

عن إنسان

وضعوا على فمه السلاسلْ
ربطوا يديه بصخرة الموتى،
وقالوا: أنت قاتلْ!

*

أخذوا طعامَهُ، والملابسَ، والبيارقْ
ورموه في زنزانة الموتى،
وقالوا: أنت سارقْ!

طردوه من كل المرافىءْ
أخذوا حبيبته الصغيرة،
ثم قالوا: أنت لاجىءْ!

*

يا دامي العينين، والكفين!

إن الليل زائلْ

لا غرفةُ التوقيف باقيةٌ

ولا زَرَدُ السلاسلْ!

نيرون مات، ولم تمت روما ...

بعينيها تقاتلْ!

وحبوبُ سنبلةٍ تموت

ستملأُ الوادي سنابلْ ..!

أمل

ما زال في صحونكم بقية من العسلْ
ردوا الذباب عن صحونكم
لتحفظوا العسلْ!

*

ما زال في كرومكم عناقيد من العنبْ
ردوا بنات آوى
يا حارسي الكروم
لينضج العنبْ ..

*

ما زال في بيوتكم حصيرةٌ .. وبابْ
سدوا طريق الريح عن صغاركم
ليرقد الأطفال

الريح بردٌ قارسٌ .. فلتغلقوا الأبوابْ

*

ما زال في قلوبكم دماءْ
لا تسفحوها أيها الآباء ..
فإن في أحشائكم جنين ..

*

ما زال في موقدكم حطبْ
وقهوةٌ .. وحزمةٌ من اللهبْ ..

مرثية

لملمتُ جرحكَ يا أبي

برموش أشعاري

فبكت عيون الناس

من حزني .. ومن ناري

وغمست خبزي في التراب ..

وما التمست شهامة الجارِ!

وزرعت أزهاري

في تربةٍ صمَّاء عارية

بلا غيم ... وأمطارِ

فترقرقتْ لما نذرت لها

جرحاً بكى برموش أشعاري!

عفواً أبي!

قلبي موائدهم
وتمزُّقي.. وتيتُّمي العاري!
ما حيلة الشعراء يا أبتي
غير الذي أورثتَ أقداري
إن يشرب البؤساء من قدحي
لن يسألوا
من أي كرم خمريَ الجاري!

وعاد .. في كفن

- ١ -

يحكون في بلادنا
يحكون في شَجَنْ
عن صاحبي الذي مضى
وعاد في كفنْ

*

كان اسمه ...
لا تذكروا اسمهْ!
خلّوه في قلوبنا ..
لا تدعوا الكلمهْ
تضيع في الهواء، كالرماد ..

خلوه جرحاً راعفاً .. لا يعرف الضماد
طريقه إليه ..
أخاف يا أحبتي .. أخاف يا أيتام ..
أخاف أن ننساه بين زحمة الأسماء
أخاف أن يذوب في زوابع الشتاء!
أخاف أن تنام في قلوبنا
جراحنا ..
أخاف أن تنام!!

- ٢ -

العمرُ ... عُمْرُ برعمٍ لا يذكر المطر..
لم يبك تحت شرفة القمر
لم يوقف الساعات بالسهر ..
وما تداعت عند حائطٍ يداه ..
ولم تسافر خلف خيط شهوةٍ .. عيناه!
ولم يُقَبِّل حلوةً..
لم يعرف الغزل
غير أغاني مطرب ضيَّعه الأمل
ولم يقل لحلوة: الله!
إلّا مرتين!

لم تلتفت إليه .. ما أعطته إلّا طرف عين
كان الفتى صغيرا ..
فغاب عن طريقها
ولم يفكر بالهوى كثيرا ..!

- ٣ -

يحكون في بلادنا
يحكون في شجن
عن صاحبي الذي مضى
وعاد في كفن
ما قال حين زغردت خطاه خلف الباب
لأمه: الوداع!
ما قال للأحباب .. للأصحاب:
موعدنا غداً!
ولم يضع رسالة .. كعادة المسافرين
تقول: إني عائدٌ .. وتُسكتُ الظنون
ولم يَخُطَّ كلمةً ..
تُضيء ليلَ أمه التي..
تخاطب السماء والأشياء،
تقول: يا وسادة السرير!

يا حقيبة الثياب!

يا ليل! يا نجوم! يا إله! يا سحاب!:

أما رأيتم شارداً .. عيناه نجمتان؟

يدّاه سلّتان من ريحان

وصدره وسادة النجوم والقمر

وشعره أرجوحةٌ للريح والزهر!

أما رأيتم شارداً

مسافراً لا يحسن السفر!

راح بلا زوَّادة، من يطعم الفتى

إن جاع في طريقه؟

من يرحم الغريب؟

قلبي عليه من غوائل الدروب!

قلبي عليك يا فتى .. يا ولداه!

قولوا لها، يا ليل! يا نجوم!

يا دروب! يا سحاب!

قولوا لها: لن تحملي الجواب

فالجرح فوق الدمع.. فوق الحزن والعذاب!

لن تحملي .. لن تصبري كثيراً

لأنه ..

لأنه مات، ولم يزل صغيرا!

- ٤ -

يا أمه!

لا تقلعي الدموع من جذورها!

للدمع يا والدتي جذور،

تخاطب المساء كل يوم ..

تقول: يا قافلة المساء!

من أين تعبرين؟

غصَّتْ دروبُ الموت.. حينَ سَدَّها المسافرون

سُدَّتْ دروب الحزن.. لو وقفتِ لحظتين

لحظتين!

لتمسحي الجبين والعينين

وتحملي من دمعنا تذكار

لمن قضوا من قبلنا .. أحبابنا المهاجرين

يا أمه!

لا تقلعي الدموع من جذورها

خلّي ببئر القلب دمعتين!

فقد يموت في غد أبوه .. أو أخوه

أو صديقه أنا

خلي لنا ..

للميتين في غد لو دمعتين ... دمعتين!

- ٥ -

يحكون في بلادنا عن صاحبي الكثيرا

حرائقُ الرصاصِ في وجناته

وصدره .. ووجهه ..

لا تشرحوا الأمور!

أنا رأيت جرحه

حدّقت في أبعاده كثيرا ..

«قلبي على أطفالنا»

وكل أُم تحضن السريرا!

يا أصدقاء الراحل البعيد

لا تسألوا: متى يعود

لا تسألوا كثيرا

بل اسألوا: متى

يستيقظ الرجال!

الـموت في الغابة

نامي!
فعين الله نائمةٌ
عنا .. وأسرابُ الشحاريرِ
والسنديانةُ .. والطريق هنا
فتوسدي أجفانَ مصدورِ
وثلاثَ عشرةَ نجمةً خمدتْ
في دربِ أوهامِ المقاديرِ
لا شيء! قصةُ طفلة همدتْ
لا شيء يوحي صمت تفكيرِ
جرحٌ صغير .. مات صاحبُهُ
فطواه ليل كالأساطيرِ
تاريخه .. أنفاسُ مزرعةٍ

تسطو عليها كفُّ شريرِ
كانت، فلا نقرات قبَّرةٍ
بقيت، ولا صيحات ناطورِ
وغصونُ زيتونٍ مقدسةٌ
ذبلت عليها قطرة النورِ!
لا شيءَ يستدعي غناءَ أسى
فالموت أكبر من مزاميري ..
نامي ... عيون اللّه نائمة
عنا، وأسرابُ الشحاريرِ
وضِمادُ جرحكِ زهرةٌ ذبلت!
في مسربٍ في السفح مهجورِ
لكنَّ عين أخيك ساهرةٌ
خلف الضباب، ووحشة السورِ
وفؤاده ملقى على جسد
ينهدُّ كالأطلالِ .. مصدورِ
ويداه ممسكتان في لَهَفٍ
بترابه.. رغم الأعاصيرِ! ..

ثلاث صور

- ١ -

كان القمر

كعهده ـ منذ ولدنا ـ باردا

الحزن في جبينه مرقرق ..

روافدا .. روافدا

قرب سياج قرية

خرَّ حزيناً

شاردا ..

- ٢ -

كان حبيبي

كعهده ـ منذ التقينا ـ ساهما

الغيم في عيونه
يزرع أُفْقاً غائما ..
والنار في شفاهه
تقول لي ملاحما ..
ولم يزل في ليله يقرأ شعراً حالما
يسألني هدية ..
وبيت شعر .. ناعما!

- ٣ -

كان أبي
كعهده، مُحمَّلاً متاعبا
يطارد الرغيفَ أينما مضى ..
لأجله .. يصارع الثعالبا
ويصنع الأطفال ..
والتراب ..
والكواكبا ..
أخي الصغير اهترأت
ثيابه .. فعاتَبا
وأختي الكبرى اشترت جواربا!
وكل من في بيتنا يقدم المطالبا

ووالدي ـ كعهده ـ

يسترجع المناقبا

ويفتل الشواربا!

ويصنَعُ الأطفال ..

والتراب ..

والكواكبا!

الموعد الأول

شدَّتْ على يدي

ووشوشتني كلمتين

أعزَّ ما ملكته طوال يوم:

«سنلتقي غداً»

ولفَّها الطريق.

*

حلقتُ ذقني مرتين!

مسحت نعلي مرتين

أخذت ثوب صاحبي .. وليرتين ..

لأشتري حلوى لها، وقهوة مع الحليب! ..

*

وحدي على المقعد

والعاشقون يبسمون ..

وخافقي يقول:

ونحن سوف نبتسم!

*

لعلها قادمة على الطريق..

لعلها سهت.

لعلها .. لعلها

ولم تزل دقيقتان!

*

النصف بعد الرابعهْ

النصف مرّ

وساعة .. وساعتان

وامتدت الظلال

ولم تجىء من وعدتْ

في النصف بعد الرابعهْ

أغنية

وحين أعود للبيتِ

وحيداً فارغاً، إلّا من الوحده

يداي بغير أمتعةٍ، وقلبي دونما ورده

فقد وزعت ورداتي

على البؤساء منذ الصبح .. ورداتي

وصارعت الذئاب، وعدت للبيتِ

بلا رنّات ضحكةِ حلوةِ البيتِ

بغير حفيف قبلتها

بغير رفيف لمستها

بغير سؤالها عني، وعن أخبار مأساتي

وحيداً أصنع القهوه

وحيداً أشرب القهوه

فأخسر من حياتي

أخسر النشوه

رفاقي ها هنا المصباح والأشعار، والوحده

وبعض سجائر .. وجرائد كالليلِ مسودَّه

وحين أعود للبيتِ

أحس بوحشة البيتِ

وأخسر من حياتي كل ورداتي

وسرَّ النبعِ.. نبعِ الضوء في أعماق مأساتي

وأختزن العذاب لأنني وحدي

بدون حنان كفيكِ

بدون ربيع عينيكِ! ..

رسالة من المنفى

- ١ -

تحيةً .. وقبلةً

وليس عندي ما أقول بعدْ

من أين أبتدي؟ .. وأين أنتهي؟.

ودورة الزمان دون حدْ

وكل ما في غربتي

زوادةٌ، فيها رغيفٌ يابسٌ، وَوَجْدْ

ودفترٌ يحمل عني بعض ما حملت

بصقتُ في صفحاته ما ضاق بي من حقدْ

من أين أبتدي؟

وكل ما قيل وما يقال بعد غدْ

لا ينتهي بضمةٍ... أو لمسةٍ من يدْ
لا يُرجعُ الغريبَ للديار
لا يُنزلُ الأمطار
لا يُنبتُ الريشَ على
جناح طير ضائع .. منهدّْ
من أين أبتدي
تحيةً .. وقبلةً .. وبعدْ ..

- ٢ -

أقول للمذياع .. قل لها أنا بخيرْ
أقول للعصفورِ
إنْ صادفتها يا طيرْ
لا تنسني، وقلْ: بخيرْ
أنا بخير
أنا بخير
ما زال في عيني بصر!
ما زال في السما قمر!
وثوبي العتيق، حتى الآن، ما اندثر
تمزقت أطرافهُ

لكنني رتقتهُ .. ولم يزل بخير

وصرت شابّاً جاوز العشرين

تصوَّريني .. صرت في العشرين

وصرت كالشبابِ يا أُماه

أُواجه الحياه

وأحمل العبءَ كما الرجال يحملون

وأشتغل

في مطعم .. وأغسلُ الصحون.

وأصنع القهوة للزبون

وأُلصق البسمات فوق وجهي الحزين

ليفرح الزبون

- ٣ -

أنا بخير

قد صرت في العشرين

وصرت كالشباب يا أُماه

أُدخن التبغ، وأتكي على الجدار

أقول للحلوة: آه

كما يقول الآخرون

«يا إخوتي؛ ما أطيب البنات،

تصوروا كم مُرَّة هي الحياة

بدونهن .. مُرَّة هي الحياة».

وقال صاحبي: «هل عندكم رغيف؟

يا إخوتي؛ ما قيمة الإنسان

إنْ نام كل ليلةٍ .. جوعان؟»

أنا بخير

أنا بخير

عندي رغيف أسمر

وسلّة صغيرة من الخضار

- ٤ -

سمعت في المذياع

تحية المشردين.. للمشردين

قال الجميع: كلنا بخير

لا أحدٌ حزين؛

فكيف حال والدي؟

ألم يزل كعهده، يحب ذكر اللّه

والأبناء .. والتراب .. والزيتون؟

وكيف حال إخوتي

هل أصبحوا موظفين؟
سمعت يوماً والدي يقول:
سيصبحون كلهم معلمين ..
سمعته يقول:
(أجوع حتى أشتري لهم كتاب)
لا أحد في قريتي يفك حرفاً في خطاب
وكيف حال أُختنا
هل كبرت.. وجاءها خُطّاب؟
وكيف حال جدتي
ألم تزل كعهدها تقعد عند الباب؟
تدعو لنا ..
بالخير .. والشباب.. والثواب!
وكيف حال بيتنا
والعتْبَةِ الملساء .. والوجاق .. والأبواب؟
سمعت في المذياع
رسائل المشردين .. للمشردين
جميعهم بخير!
لكنني حزين ..
تكاد أن تأكلني الظنون

لم يحمل المذياع عنكم خبراً ..

ولو حزين

ولو حزين

- ٥ -

الليل - يا أمّاه - ذئبٌ جائعٌ سفّاحْ

يطارد الغريب أينما مضى ..

ويفتح الآفاق للأشباحْ

وغابةُ الصفصاف لم تزل تعانق الرياحْ

ماذا جنينا نحن يا أُماه؟

حتى نموت مرتين

فمرة نموت في الحياة

ومرة نموت عند الموت!

هل تعلمين ما الذي يملأني بكاء؟

هبي مرضتُ ليلةً .. وهدَّ جسمي الداء!

هل يذكر المساء

مهاجراً أتى هنا .. ولم يعد إلى الوطن؟

هل يذكر المساء

مهاجراً مات بلا كفن؟

يا غابة الصفصاف! هل ستذكرين

أن الذي رَمَوْه تحت ظلك الحزين

ـ كأيّ شيء مَيِّتٍ ـ إنسان؟

هل تذكرين أنني إنسان

وتحفظين جثتي من سطوة الغربان؟

أماه يا أماه.

لمن كتبت هذه الأوراق

أي بريد ذاهب يحملها؟

سُدَّت طريق البر والبحار والآفاق ..

وأنت يا أمّاه

ووالدي، وإخوتي، والأهل، والرفاق ..

لعلكم أحياء

لعلكم أموات

لعلكم مثلي بلا عنوان

ما قيمة الإنسان

بلا وطن

بلا عَلَمْ

ودونما عنوان

ما قيمة الإنسان؟

عن الصمود

- ١ -

لو يذكرُ الزيتون غارسَهُ

لصار الزيت دمعا!

يا حكمة الأجداد

لو من لحمنا نعطيك درعا!

لكنَّ سهل الريح،

لا يعطي عبيد الريح زرعا!

إنّا سنقلع بالرموش

الشوكَ والأحزانَ .. قلعا!

وإلامَ نحمل عارنا وصليبنا!

والكونُ يسعى ..

سنظل في الزيتون خُضرتَهُ،
وحولَ الأرضِ درعا!!

- ٢ -

إنّا نحبُّ الوردَ،
لكنّا نحبُّ القمحَ أكثرْ
ونحبُّ عطر الورد،
لكن السنابل منه أطهرْ
فاحموا سنابلكم من الإعصار
بالصدر المسَمَّرْ
هاتوا السياج من الصدور ..
من الصدور؛ فكيف يكسرْ؟؟
إقبض على عنق السنابل
مثلما عانقتَ خنجرْ!
الأرض، والفلاح، والإصرار،
قل لي: كيف تقهرْ ..
هذي الأقانيم الثلاثة،
كيف تقهرْ؟

؟

عيناك يا صديقتي العجوز، يا صديقتي المراهقه
عيناك شحاذان في ليل الزوايا الخانقه
لا يضحك الرجاء فيهما، ولا تنام الصاعقه
لم يبق شيء عندنا .. إلّا الدموع الغارقه
قولي: متى ستضحكين مرة، وإن تكن منافقه؟!

*

كفاك يا صديقتي ذئبان جائعان
مصّي بقايا دمنا، وبعدنا الطوفان
وإن سغبت مرةً، لا تتركي الجثمان
وإن سئمت بعدها، فعندك الديدان
إنّا خُلِقْنا غلطةً .. في غفلة من الزمان

وأنت يا صديقتي العجوز .. يا صديقتي المراهقه
كوني على أشلائنا، كالزنبقات العابقه!

*

الغاب يا صديقتي يكفِّن الأسرار
وحولنا الأشجار لا تهرِّب الأخبار
والشمس عند بابنا معمية الأنوار
واشية، لكنها لا تعبر الأسوار
إن الحياة خلفنا غريبة منافقه
فابني على عظامنا دار عُلاك الشاهقه

*

أسمعُ يا صديقتي ما يهتف الأعداء
أسمعهم من فجوة في خيمة السماء:
«يا ويل من تنفست رئاته الهواء
من رئة مسروقةٍ! ..
يا ويلَ مَنْ شرابه دماء!
ومن بنى حديقة .. ترابها أشلاء
يا ويله من وردها المسموم»!!

عن الأمنيات

لا تقل لي:

ليتني بائعُ خبز في الجزائرْ

لأغنّي مع ثائر!

لا تقل لي:

ليتني راعي مواشٍ في اليمنْ

لأغنّي لانتفاضات الزمن!

لا تقل لي:

ليتني عامل مقهى في هفَانا

لأغنّي لانتصارات الحزانى!

لا تقل لي:

ليتني أعمل في أسْوَان حَمّالاً صغيرْ

لأغنّي للصخور

*

يا صديقي!

لن يصب النيل في الفولغا

ولا الكونغو، ولا الأردن، في نهر الفرات!

كل نهر، وله نبع .. ومجرى .. وحياة!

يا صديقي! .. أرضنا ليست بعاقر

كل أرض، ولها ميلادها

كل فجر، وله موعد ثائر!

سونا

أزهارُها الصفراءُ ... والشفة المشاعْ
وسريرها العشرون مهترئ الغطاء
نامت على الإسفلت، لا أحد يبيع ... ولا يباع
وتقيأت سأم المدينة، فالطريق
عار من الأضواء ..
والمتسولين على النساء
نامت على الإسفلت، لا أحد يبيع ... ولا يباع!
يا بائع الأزهار! إغمد في فؤادي
زهرةً صفراء تنبت في الوحول!
هذا أوان الخوف، لا أحد سيفهم ما أقول
أحكي لكم عن مومسٍ .. كانت تتاجر في بلادي
بالفتية المتسولين على النساء

أزهارها صفراء، نهداها مشاع
وسريرها العشرون مهترئ الغطاء
هذي بلاد الخوف، لا أحد سيفهم ما أقول
إلّا الذين رأوا سحاب الوحل ... يمطر في بلادي!
يا بائع الأزهار! إغمد في فؤادي
زهر الوحول ... عساي أبصق
ما يضيق به فؤادي

الكلمة

الشاعر العربيُّ محرومٌ
دمُ الصحراء يغلي في نشيدِهْ
وقوافل النوق العطاشْ
أبداً تسافر في حدودِهْ
و الحلوة السمراء في صدف البحار!

الشاعر العربيُّ محرومٌ
تعوَّد أن يموت بسيف صمتهْ
ألقى على عينيه كل السر
قال: غداً ستفهمها عيوني
وأنا تركت لك الكلام على عيوني
لكنْ، أظنكِ ما فهمتِ!

البكاء

ليس من شوقٍ إلى حضنٍ فقدتُهْ
ليس من ذكرى لتمثال كسرته
ليس من حزنٍ على طفل دفنته
أنا أبكي!

*

أنا أدري أن دمع العين خذلان ... وملحُ
أنا أدري،
وبكاءُ اللحن ما زال يلحُّ
لا تَرُشّي من مناديلك عطراً
لستُ أصحو ... لستُ أصحو
ودعي قلبيَ ... يبكي!

*

شوكة في القلب ما زالت تغزُّ

قطراتٍ ... قطراتٍ ... لم يزل جرحي ينزُّ

أين زر الورد؟

هل في الدم ورد؟

يا عزاء الميتين!

هل لنا مجد وعزٌّ!

أتركي قلبيَ يبكي!

*

خبِّئي عن أذُني هذي الخرافات الرتيبهْ

أنا أدرى منك بالإنسان ... بالأرض الغريبهْ

لم أبعْ مُهري ... ولا راياتِ مأساتي الخضيبهْ

ولأني أحمل الصخرَ وداء الحب ...

والشمسَ الغريبهْ

أنا أبكي!

*

أنا أمضي قبل ميعادي ... مبكرْ

عمرنا أضيق منا،

عمرنا أصغر ... أصغرْ

هل صحيحٌ، يُثمر الموت حياةً
هل سأثمرْ
في يدِ الجائع خبزاً، في فم الأطفال سكّرْ؟
أنا أبكي!

الرباط

لن نفترقْ

أمامنا البِحار، والغابات

وراءنا. فكيفَ نفترقْ؟

يا صاحبي! يا أسود العينينِ

خذني! كيف نفترقْ؟

وليس لي سواك!

*

لعلني سئمتُ مقلتيكْ

يا ظامئاً إلى الأبدْ!

لعلني أخاف من يديكْ

يا قاسياً .. إلى الأبدْ!

لكنني، بلا أحدْ

بلا أحدْ!

فكيف نفترقْ؟

*

يا أجمل الوحوش! يا صديقي

ما بيننا سوى النفاق

والخوفِ من متاعب الطريق

البحرُ من أمامنا.

والغابُ من ورائنا،

فكيف نفترقْ؟

عن الشعر

- ١ -

أمسِ، غَنَّيْنا لنجمِ فوق غيمهْ

وانغمسنا في البكاء!

أمس، عاتبنا الدوالي، والقمر

والليالي والقدر،

وتوددنا النساء!

دقت الساعة، والخَيّامُ يسكرْ

وعلى وقع أغانيه المُخَدَّرْ

قد ظللنا بؤساء!

يا رفاقي الشعراء!

نحن في دنيا جديدهْ

مات ما فات، فمن يكتبْ قصيدهْ

في زمانِ الريحِ والذرَّة،
يخلقْ أَنبياءْ!

- ٢ -

قصائدنا، بلا لون
بلا طعمٍ ... بلا صوتِ!
إذا لم تحمل المصباحَ من بيتٍ إلى بيتِ!
وإن لم يفهم «البُسَطا» معانيها
فأولى أن نُذَرّيها
ونخلدَ نحنُ ... للصمتِ!!

- ٣ -

لو كانت هذي الأشعارْ
إزميلاً في قبضة كادحْ
قنبلة في كف مُكافحْ!
لو كانت هذي الأشعارْ!

*

لو كانت هذي الكلماتْ
محراثاً بين يَدَيْ فلاحْ
وقميصاً ... أو باباً ... أو مفتاحْ!

لو كانت هذي الكلماتْ

*

أحَدُ الشعراء يقول:

لو سَرَّت أشعاري خلاّني

وأغاظت أعدائي

فأنا شاعر ..

وأنا ... سأقول!

الحزن والغضب

الصوتُ في شفتيكَ لا يُطربْ
والنار في رئتيكَ لا تُغلبْ
وأبو أبيكَ على حذاء مهاجرٍ يُصلبْ
وشفاهُها تُعطي سواكَ، ونهدُها يُحلبْ
فعلام لا تغضبْ؟

- ١ -

أمس التقينا في طريقِ الليلِ، من حانٍ لحانِ
شفتاكَ حاملتانِ
كلَّ أنينِ غابِ السنديانِ
ورويتَ لي للمرةِ الخمسينَ
حبَّ فلانةٍ، وهوى فلانِ

وزجاجة الكونياك،

والخيّام، والسيف اليماني!

عبثاً تخدِّرُ جرحكَ المفتوحَ

عربدةُ القناني!

عبثاً تُطوِّع يا كنارَ الليلِ جامحةَ الأماني!

الريحُ في شفتيكَ ... تهدم ما بنيتَ من الأغاني!

فعلام لا تغضبْ؟

- ٢ -

قالوا: ابتسمْ لتعيشَ!

فابتسمتْ عيونكَ للطريقْ

وتبرَّأتْ عيناكَ من قلبٍ يُرَمِّده الحريقْ

وحلفتَ لي: إني سعيدٌ يا رفيقْ!

وقرأت فلسفة ابتسامات الرقيقْ:

الخمر، والخضراء، والجسد الرشيقْ!

فإذا رأيتَ دمي بخمركَ،

كيف تشرب يا رفيقْ؟؟

- ٣ -

القرية الأطلال،

والناطور، والأرض واليبابْ
وجذوع زيتوناتكم ..
أعشاش بُومٍ أو غرابْ!
من هَيَّأَ المحراثَ هذا العام؟
من ربّى الترابْ
يا أنت! .. أين أخوكَ .. أينَ أبوكَ؟
إنهما سرابْ!
من أين جئتَ؟ .. أمن جدارٍ؟
أم هبطتَ من السحابْ؟
أتُرى تصون كرامة الموتى،
وتطرق في ختام الليل بابْ؟
وعلامَ لا تغضبْ؟

- ٤ -

أتحبها؟
أحببت قبلك،
وارتجفتُ على جدائلها الظليلهْ
كانت جميلهْ
لكنها رقصت على قبري، وأيامي القليلهْ

وتخاصرت والآخرين ... بحلبة الرقص الطويلهْ
وأنا وأنت، نعاتبُ التاريخَ
والعَلَمَ الذي فقد الرجولهْ
مَن نحن؟
دع نَزَقَ الشوارعِ
يرتوي من ذل رايتنا القتيلهْ
فعلام لا تغضبْ؟

- ٥ -

إنّا حملنا الحزن أعواماً وما طلع الصباحْ
والحزن نارٌ تُخْمِدُ الأيامُ شهوتَها،
وتوقظها الرياحْ
والريح عندكَ، كيف تُلجِمُها؟
وما لكَ من سلاحْ
إلّا لقاءُ الريحِ والنيرانِ ..
في وطنٍ مُباحْ؟!

أجمل حب

كما ينبت العشب بين مفاصل صخرةْ
وُجدنا غريبين يوما
وكانت سماء الربيع تؤلف نجماً ... ونجما
وكنت أؤلف فقرة حب ..
لعينيكِ .. غنيتها!
أتعلمُ عيناكِ أني انتظرت طويلا
كما انتظرَ الصيفَ طائرْ
ونمتُ .. كنوم المهاجرْ
فعينٌ تنام، لتصحوَ عين .. طويلا
وتبكي على أختها،
حبيبان نحن، إلى أن ينام القمر
ونعلم أن العناق، وأن القبل
طعام ليالي الغزل

وأن الصباح ينادي خطاي لكي تستمر
على الدرب يوماً جديداً!
صديقان نحن، فسيري بقربيَ كفّاً بكف
معاً، نصنع الخبز والأغنيات
لماذا نسائل هذا الطريق .. لأي مصير
يسير بنا؟
ومن أين لملم أقدامنا؟
فحسبي، وحسبك أنّا نسير ...
معاً، للأبد
لماذا نفتش عن أُغنيات البكاء
بديوان شعر قديم؟
ونسأل: يا حبنا! هل تدوم؟
أُحبكِ حُبَّ القوافل واحةَ عشب وماء
وحب الفقير الرغيف!
كما ينبت العشب بين مفاصل صخره
وجدنا غريبين يوما
ونبقى رفيقين دوما.

رباعيات

وطني! لم يعطني حبي لَكْ
غير أخشاب صليبي!
وطني، يا وطني، ما أجملكْ!
خذ عيوني، خذ فؤادي، خذ.. حبيبي!

*

في توابيتِ أحبَّائي أُغنّي
لأراجيحِ أحبَّائي الصغارْ
دَمُ جَدِّي عائدٌ لي، فانتظرني
آخِرُ الليلِ نهارْ! ..

*

شهوةُ السكِّينِ لن يفهمَها عطرُ الزنابقْ

وحبيبي لا ينامْ..
سأُغني، وليكنْ منبرُ أشعاري مشانقْ
وعلى الناس سلامْ ..

*

أجملُ الأشعارِ ما يحفظُهُ عن ظهر قلبْ
كلُّ قارئْ ..
فإذا لم يشرَبِ الناسُ أناشيدَكَ شُربْ
قلْ، أنا وحديَ خاطئ ..

*

ربما أذكر فرساناً، وليلى بَدَوِيَّهْ
ورعاةً يحلِبون النّوقَ في مغرِب شمسِ
يا بلادي، ما تمنيتُ العصورَ الجاهليَّهْ
فغَدِي، أفضلُ من يومي وأمسي!!

*

المرءُ الشائكُ المنسيُّ ما زالَ ممرّا
وستأتيه الخُطى في ذاتِ عامْ
عندما يكبرُ أحفاد الذي عمَّرَ دهرا
يقلعُ الصخرَ، وأنيابَ الظلامْ ..

*

من ثقوبِ السجنِ لاقيتُ عيونَ البرتقالِ
وعناقَ البحرِ والأفقِ الرحيبِ
فإذا اشتدَّ سوادُ الحزن في إحدى الليالي
أتعزَّى بجمالِ الليلِ، في شَعرِ حبيبي!!

*

حُبُّنا أنْ يضغطَ الكفُّ على الكفِّ، ونمشي
وإذا جعنا تقاسمنا الرغيفْ ..
في ليالي البردِ أحميكِ برمشي
وبأشعارٍ على الشمس تطوفْ!!

*

أجملُ الأشياءِ أن نشرب شاياً في المساءْ
وعن الأطفالِ نحكي ..
وغد لا نلتقي فيه خَفاءْ
وَمِنَ الأفراحِ، نبكي!!

*

لا أُريد الموت، ما دامت على الأرض قصائدْ
وعيون لا تنامْ!

فإذا جاء، ولن يأتي بإذن، لن أُعاندْ
بل سأرجوه، لكي أرثي الختامْ

*

لم أجد أين أنامْ
لا سرير أرتمي في ضفتيهْ
مومس مرت وقالت دون أن تلقي السلامْ:
سيدي! إن شئتَ .. عشرين جنيهْ!!

لوركا

عفوَ زهر الدم، يا لوركا، وشمس في يديكْ
وصليب يرتدي نار قصيده.
أجمل الفرسان في الليل ... يحجّون إليك
بشهيد .. وشهيده

*

هكذا الشاعر، زلزال .. وإعصار مياه
ورياح، إن زأر
يهمس الشارع للشارع، قد مرت خطاه
فتطاير يا حجر!

*

هكذا الشاعر، موسيقى، وترتيل صلاه

ونسيم، إن همسْ
يأخذ الحسناء في لين إله!
وله الأقمار عش، إن جلس!

*

لم تزل إسبانيا أتعس أُمّ
أرخت الشعر على أكتافها
وعلى أغصان زيتون المساء المدلهمّ
علقت أسيافها!

*

عازف الجيتار في الليل يجوب الطرقات
ويغني في الخفاء
وبأشعارك يا لوركا، يلم الصدقات
من عيون البؤساء!

*

العيون السود في إسبانيا، تنظر شزرا
وحديث الحب أبكمْ
يحفر الشاعر في كفيه قبرا

إن تكلم!

*

نسي النسيان أن يمشي على ضوء دمك
فاكتست بالدم أزهارُ القمر
أنبل الأسياف ... حرفٌ من فمك
عن أناشيد الغجر!

*

آخر الأخبار من مدريد، أن الجرح قال:
شبع الصابر صبرا!
أعدموا غوليان في الليل، وزهرُ البرتقال
لم يزل ينشر عطرا.

*

أجمل الأخبار من مدريد،
ما يأتي غدا

حنين إلى الضوء

ماذا يثير الناسَ لو سرنا على ضوء النهارْ

وحملتُ عنكِ حقيبة اليد ... والمظلهْ

وأخذت ثغرك عند زاوية الجدار

وقطفت قبله!

عيناك!

أحلم أن أرى عينيك يوماً تنعسانْ!

فأرى هدوء البحر عند شروق شمسِ

شفتاك!

أحلم أن أرى شفتيك حين تقبّلان

فأرى اشتعال الشمس في ميلاد عرس!

ماذا يغيظ الليل، لو أوقدتِ عندي شمعتين

ورأيت وجهكِ حين يغسله الشعاعْ

ورأيت نهر العاج، يحرسه رخام الزورقين
فأعود طفلاً للرضاع!
من بئر مأساتي ... أُنادي مقلتيكِ
كي تحملا خمر الضياء إلى عروقي
ماذا يثير الناس لو ألقيت رأسي في يديك
وطويت خصرك في الطريق!!

بطاقة هوية

سَجِّلْ!
أنا عربي
ورقم بطاقتي خمسون ألفْ
وأطفالي ثمانيةٌ
وتاسِعُهم ... سيأتي بعد صيفْ!
فهل تَغضب؟

*

سجل!
أنا عربي
وأعمل مع رفاق الكدح في محجرْ
وأطفالي ثمانيةٌ
أسلُّ لهم رغيفَ الخبزِ،

والأثوابَ والدفترْ

من الصخر ..

ولا أتوسَّلُ الصَّدَقاتِ من بابِكْ

ولا أصغرْ

أمام بلاط أعتابك

فهل تغضبْ؟

*

سجل!

أنا عربي

أَنا إسمٌ بلا لَقَبِ

صَبُورٌ في بلادٍ كُلُّ ما فيها

يعيش بفَوْرةِ الغضب

جذوري ..

قبل ميلاد الزمان رستْ

وقبل تفتُّحِ الحقبِ

وقبل السرو والزيتونْ

.. وقبل ترعرع العشبِ

أبي ... من أُسرة المحراث

لا من سادةٍ نُجُبِ
وجدّي كان فلاحاً
بلا حسبٍ .. ولا نسبِ!
يُعَلمني شموخ النَفْس قبل قراءة الكتبِ
وبيتي، كوخُ ناطورٍ
من الأعوادِ والقصبِ
فهل تُرضيك منزلتي؟
أنا إسمٌ بلا لقبِ!

*

سجل!
أنا عربي
ولون الشعر فحميٌّ
ولون العين بنيٌّ
وميزاتي:
على رأسي عقالٌ فوق كوفِيَّهْ
وكفي صلبةٌ كالصخر ...
تخمشُ من يلامسها
وعنواني:

أنا من قريةٍ عزلاء ... منسيَّهْ
شوارعها بلاِ أسماء
وكل رجالها ... في الحقل والمحجرْ
فهل تغضب؟

*

سجل
أنا عربي
سُلبتُ كروم أجدادي
وأرضاً كنتُ أفلحها
أنا وجميعُ أولادي
ولم تترك لنا .. ولكل أحفادى
سوى هذي الصخور..
فهل ستأخذُها
حكومتكم ... كما قيلا!؟
إذن!
سجل ... برأس الصفحة الأولى
أنا لا أكرهُ الناسَ
ولا أسطو على أحد

ولكني ... إذا ما جعتُ

آكلُ لحم مغتصبي

حذارِ ... حذار ... من جوعي

ومن غضبي!!

عَاشِق مِن فلسطين

١٩٦٦

عاشق من فلسطين

عيونكِ شوكةٌ في القلبِ
توجعني ... وأعبدُها
وأحميها من الريحِ
وأُغمدها وراء الليل والأوجاع ... أُغمدها
فيشعل جُرحُها ضوءَ المصابيحِ
ويجعل حاضري غدُها
أعزَّ عليَّ من روحي
وأنسى، بعد حينٍ، في لقاء العين بالعينِ
بأنّا مرة كنّا، وراءَ الباب، إثنينِ!

كلامُكِ ... كان أغنيةْ
وكنت أُحاول الإِنشاد

ولكنَّ الشقاء أحاط بالشفة الربيعيَّه

كلامك، كالسنونو، طار من بيتي

فهاجر باب منزلنا، وعتبتنا الخريفيَّه

وراءك، حيث شاء الشوقُ ...

وانكسرت مرايانا

فصار الحزن ألفينِ

ولملمنا شظايا الصوت ...

لم نتقن سوى مرثيَّة الوطنِ!

سنزرعها معاً في صدر جيتارِ

وفق سطوح نكبتنا، سنعزفها

لأقمارٍ مشوَّهةٍ ... وأحجارِ

ولكنّي نسيتُ .. نسيتُ يا مجهولةَ الصوتِ:

رحيلك أصدأ الجيتار ... أم صمتي؟!

رأيتُكِ أمسِ في الميناءْ

مسافرة بلا أهل ... بلا زادِ

ركضتُ إليكِ كالأيتام،

أسأل حكمة الأجداد:

لماذا تُسحبُ البيَّارة الخضراءْ
إلى سجن، إلى منفى، إلى ميناءْ
وتبقى، رغم رحلتها
ورغم روائح الأملاح والأشواقِ،
تبقى دائماً خضراء؟
وأكتب في مفكرتي:
أُحبُّ البرتقال. وأكرهُ الميناء
وأُردف في مفكرتي:
على الميناء
وقفتُ. وكانت الدنيا عيونَ شتاءْ
وقشر البرتقال لنا. وخلفي كانت الصحراء!

رأيتُكِ في جبال الشوك
راعيةً بلا أغنام
مطارَدةً، وفي الأطلال..
وكنت حديقتي، وأنا غريب الدار
أدقُّ الباب يا قلبي
على قلبي ..

يقومِ الباب والشبّاك والإسمنت والأحجار!

رأيتكِ في خوابي الماء والقمحِ
محطَّمةً. رأيتك في مقاهي الليل خادمةً
رأيتك في شعاع الدمع والجرحِ.
وأنتِ الرئة الأخرى بصدري..
أنتِ أنتِ الصوتُ في شفتي..
وأنتِ الماء، أنتِ النار!

رأيتكِ عند باب الكهف..
مُعَلِّقَةً على حبل الغسيل ثيابَ أيتامك
رأيتك في المواقد .. في الشوارع ..
في الزرائب ... في دمِ الشمسِ
رأيتك في أغاني اليُتم والبؤسِ!
رأيتك ملءَ ملح البحر والرملِ
وكنتِ جميلة كالأرض ... كالأطفال ... كالفلِّ
وأُقسم:
من رموش العين سوف أُخيط منديلا

وأنقش فوقه شعراً لعينيكِ
وإسماً حين أسقيه فؤاداً ذاب ترتيلا ..
يمدُّ عرائش الأيكِ ..
سأكتب جملة أغلى من الشُهَدَاء والقُبَلِ:
«فلسطينيةً كانت. ولم تزلِ!».

فتحتُ الباب والشباك في ليل الأعاصيرِ
على قمرٍ تصلَّب في ليالينا
وقلتُ لليلتي: دوري!
وراء الليل والسورِ ..
فلي وعد مع الكلمات والنورِ.
وأنتِ حديقتي العذراءُ ..
ما دامت أغانينا
سيوفاً حين نشرعها
وأنتِ وفيَّة كالقمح ..
ما دامت أغانينا
سماداً حين نزرعها
وأنت كنخلة في البال،

ما انكسرتْ لعاصفةٍ وحطّابِ
وما جزَّت ضفائرَها
وحوشُ البيد والغابِ ...
ولٰكني أنا المنفيُّ خلف السور والبابِ
خُذيني تحت عينيكِ
خذيني، أينما كنتِ
خذيني، كيفما كنتِ
أردَّ إليَّ لون الوجه والبدنِ
وضوء القلب والعينِ
وملح الخبز واللحنِ
وطعم الأرض والوطنِ!
خُذيني تحت عينيكِ
خذيني لوحة زيتيَّةً في كوخ حسراتِ
خذيني آيةً من سفر مأساتي
خذيني لعبة ... حجراً من البيت
ليذكر جيلُنا الآتي
مساربه إلى البيتِ!

فلسطينيةَ العينين والوشمِ

فلسطينية الإسمِ
فلسطينية الأحلام والهمّ
فلسطينية المنديل والقدمَين والجسمِ
فلسطينية الكلمات والصمتِ
فلسطينية الصوتِ
فلسطينية الميلاد والموتِ
حملتُكِ في دفاتريَ القديمةِ
نارَ أشعاري
حملتُك زادَ أسفاري
وباسمك، صحتُ في الوديانْ:
خيولُ الروم! .. أعرفها
وإن يتبدَّل الميدان!
خُذُوا حَذَراً ..
من البرق الذي صكَّته أُغنيتي على الصوَّانْ
أنا زينُ الشباب، وفارس الفرسانْ
أنا. ومحطِّم الأوثان.
حدود الشام أزرعها
قصائد تطلق العقبان!

وباسمك، صحت بالأعداءْ:

كلي لحمي إذا ما نمت يا ديدانْ

فبيض النمل لا يلد النسورَ ..

وبيضةُ الأفعى ...

يخبىء قشرُها ثعبانْ!

خيول الروم .. أعرفها

وأعرف قبلها أني

أنا زينُ الشباب، وفارس الفرسان!

قال المغني

هكذا يكبرُ الشجرْ

ويذوب الحصى ...

رويداً رويداً

من خرير النهر!

المغني، على طريق المدينهْ

ساهرُ اللحن .. كالسهرْ

قال للريح في ضجرْ:

ـ دمِّريني ما دمتِ أنتِ حياتي

مثلما يدَّعي القدر ـ

... واشربيني نَخب انتصار الرفاتِ

هكذا ينزل المطر

يا شفاه المدينة الملعونهْ!

أبعَدُوا عنه سامعيهْ
والسكارى ..
وقيَّدوه
ورموهُ في غرفة التوقيفِ
شتموا أُمه، وأُمَّ أبيه
والمغني ..
يتغنى بشَعر شمس الخريفِ
يضمدُ الجرح .. بالوترْ!

المغني على صليب الألمْ
جرحُه ساطع كنجمْ
قال للناس حوله
كلَّ شيء .. سوى الندم:
هكذا متُّ واقفاً
واقفاً متُّ كالشجر!
هكذا يصبح الصليبْ

منبراً .. أو عصا نَغمْ
ومساميره .. وترا!

هكذا ينزل المطرْ
هكذا يكبر الشجر ..

صوت وسوط

لو كان لي برجٌ،
حبست البرق في جيبي
وأطفأتُ السحابْ ..
لو كان لي في البحر أشرعةٌ،
أخذتُ الموج والإعصار في كفّي
ونوَّمت العبابْ ..
لو كان عندي سلَّمٌ،
لغرستُ فوقَ الشمسِ رايتيَ التي
اهترأتْ على الأرض الخراب ..
لو كان لي فرسٌ،
تركت عنانها
ولجمتُ حُوذيَّ الرياح على الهضابْ ..

لو كان لي حقل ومحراثٌ،
زرعت القلب والأشعارَ
في بطن التراب ..
لو كان لي عودٌ،
ملأتُ الصمتَ أسئلةً ملحَّنةً،
وسلَّيتُ الصحاب ..
لو كان لي قَدَمٌ،
مشيتُ .. مشيتُ حتى الموت
منْ غاب لغاب ..
لو كان لي ..
حتى صليبي ليسَ لي،
إنِّي له،
حتى العذاب!

ـ ماذا تبقَّى أيها المحكوم؟
إنَّ الليل خيَّم مرَّة أُخرى ..
وتهتفُ: لا أهاب؟!
ـ يا سيداتي .. سادتي!

يا شامخين على الحرابْ!
الساق تقطع .. والرقاب
والقلبُ يُطفأُ ـ لو أردتم ـ
والسحابْ ..
يمشي على أقدامكم ..
والعينُ تُسمل، والهضابْ
تنهار لو صحتم بها
ودمي المملَّح بالتراب!
إن جفَّ كرمكمُ،
يصير إلى شرابْ!
والنيل يسكب في الفرات،
إذا أردتم، والغرابْ ..
لو شئتم .. في الليل شاب!
لكنَّ صوتي صاح يوماً:
لا أهابْ
فلتجلدوه إذا استطعتم ..
واركضوا خلف الصدى
ما دام يهتف: لا أهاب!

أغاني الأسير

ملوِّحةً، يا مناديل حبّي
عليكِ السلامْ!
تقولين أكثر مما يقول
هديل الحمام
وأكثر من دمعةٍ
خلف جفن .. ينام
على حُلُمٍ هاربٍ!

مفتَّحة، يا شبابيك حبّي
تمرُّ المدينه
أمامكِ، عرسَ طغاة
ومرثاة أمّ حزينه
وخلف الستائر، أقمارنا

بقايا عفونه.
وزنزانتي .. موصده!

ملوَّثة، يا كؤوس الطفولهْ
بطعم الكهولهْ
شربنا، شربنا
على غفلة من شفاه الظمأ
وقلنا:
نخاف على شفتينا
نخاف الندى .. والصدأ!
وجلستنا، كالزمان، بخيله
وبيني وبينك نهر الدمِ

معلَّقة، يا عيون الحبيبه
على حبل نورٍ
تكسَّر من مقلتينْ
ألا تعلمين بأني
أسير اثنتين؟

جناحاي: أنت وحريَّتي

تنامان خلف الضفاف الغريبه

أحبُّكما، هكذا، توأمين!

ولادة

ـ كانت أشجار التينْ

وأبوكَ ..

وكوخ الطين

وعيون الفلاحين

تبكي في تشرين!

ـ المولود صبي

ثالثهم ..

والثدي شحيحْ

والريحْ

ذرَّت أوراق التين!

حزنتْ قارئةُ الرملِ

ورَوَتْ لي،
همساً،
هذا الغصنُ حزين!

- يا أُمي
جاوزت العشرين
فدعي الهمَّ، ونامي!
إن قصفتْ عاصفة
في تشرين ..
ثالثهم ..
فجذور التين
راسخة في الصخر .. وفي الطين
تعطيك غصوناً أُخرى..
وغصون!

إلى أمي

أحنُّ إلى خبز أُمي
وقهوة أُمي
ولمسة أُمي ..
وتكبرُ فيَّ الطفولةُ
يوماً على صدر يومِ
وأعشَقُ عمرِي لأني
إذا مُتُّ
أخجل من دمع أُمي!

خذيني، إذا عدتُ يوماً
وشاحاً لهُدْبِكْ
وغطّي عظامي بعشب

تعمَّد من طهر كعبك

وشُدّي وثاقي ..

بخصلة شَعر ..

بخيطٍ يلوِّح في ذيل ثوبك..

عساني أصيرُ إلهاً

إلهاً أصير ..

إذا ما لمستُ قرارة قلبك!

ضعيني، إذا ما رجعتُ

وقوداً بتنّور نارِكْ ..

وحبل غسيل على سطح دارك

لأني فقدتُ الوقوفَ

بدون صلاة نهارك

هَرِمْتُ، فردّي نجوم الطفولة

حتى أُشارك

صغار العصافيرِ

درب الرجوع ..

لعُشِّ انتظارِك!

أهديها غزالاً

وشاحُ المغرب الورديٌّ فوق ضفائر الحلوهْ
وحبةَ برتقال كانت الشمسُ.
تحاول كفها البيضاءُ أن تصطادها عُنوةْ
وتصرخ بي، وكل صراخها همسُ:
أخي! يا سُلَّمي العالي!
أريدُ الشمس بالقوةْ!

.. وفي ليلٍ رماديٌّ، رأينا الكوكب الفضي
ينقط ضوءه العسلي فوق نوافذ البيتِ.
وقالت، وهي حين تقول، تدفعني إلى الصمت:
تعال غداً لنزرعه .. مكان الشوك في الأرضِ!

أبي من أجلها صلّى وصامَ ..
وجاب أرض الهند والإغريقْ

إلهاً راكعاً لغبار رجليها
وجاع لأجلها في البيد .. أجيالاً يشدُّ النوق:
وأقسمَ تحت عينيها
يمين قناعة الخالق بالمخلوق!

تنام، فتحلم اليقظة في عيني مع السَّهَرِ
فدائيٌّ الربيع أنا، وعبدُ نعاس عينيها
وصوفي الحصى، والرمل، والحجرِ
سأعبدهم، لتلعب كالملاك، وظلُّ رجليها
على الدنيا، صلاة الأرض للمطرِ

حريرٌ شوكُ أيّامي، على دربي إلى غدها
حريرٌ شوكُ أيّامي!
وأشهى من عصير المجد ما ألقى .. لأسعدها
وأنسى في طفولتها عذاب طفولتي الدامي
وأشرب، كالعصافير، الرضا والحُبَّ من يدها

سأُهْديها غزالاً ناعماً كجناح أُغنيهْ
له أنفٌ ككرملنا ..
وأقدامٌ كأنفاس الرياح، كخطو حريَّه

وعنقٌ طالع كطلوع سنبلنا
من الوادي .. إلى القمم السماويَّه!

سلاماً يا وشاح الشمس، يا منديل جنّتنا
ويا قَسَمَ المحبة في أغانينا!
سلاماً، يا ربيعاً راحلاً في الجفن! يا عَسَلاً بغصَّتنا
ويا سهر التفاؤل في أمانينا
لخضرة أعين الأطفال .. ننسج ضوء رايتنا!

شهيد الأغنية

نَصَبُوا الصليبَ على الجدارْ
فكّوا السلاسل عن يدي.
والسوط مروحةٌ. ودقاتُ النعال
لحن يصفِّرُ: سيدي!
ويقول للموتى: حذار!
ـ يا أنت!
قال نباح وحشْ:
أعطيكَ دربكَ لو سجدتَ
أمام عرشي سجدتيْنْ!
ولثمتَ كفي، في حياء، مرتينْ
أو ..
تعتلي خشب الصليبِ

شهيد أغنية .. وشمسْ!

ما كنتُ أول حامل إكليل شوكِ
لأقول للسمراء: إبكي!
يا من أُحبك، مثلَ إيماني،
ولاسمك في فمي المغموسِ
بالعطش المعفَّر بالغبار
طعمُ النبيذ إذا تعتّق في الجرار!
ما كنتُ أول حامل إكليل شوكِ
لأقول: إبكي!
فعسى صليبي صهوةٌ،
والشوك فوق جبيني المنقوش
بالدم والندى
إكليلُ غار!
وعساي آخرُ من يقول:
أنا تشهَّيت الردى!

تموز والأفعى

تموزُ مرَّ على خرائبنا

وأيقظ شهوة الأفعى

القمح يحصد مرة أُخرى

ويعطش للندى .. المرعى

تموز عاد، ليرجم الذكرى

عطشاً .. وأحجاراً من النارِ

فتساءل المنفيُّ:

كيف يطيع زرعُ يدي

كفاً تسمم ماء آباري؟

وتساءل الأطفال في المنفى:

آباؤنا ملأوا ليالينا هنا .. وصفا

عن مجدنا الذهبي
قالوا كثيراً عن كروم التين والعنبِ
تموز عاد، وما رأيناها

وتنهَّد المسجونُ: كنتَ لنا
يا حارقي تموز ... معطاءً
رخيصاً مثل نور الشمس والرملِ
واليوم، تجلدنا بسوط الشوق والذلِ

تموز .. يرحل عن بيادرنا
تموز.. يأخذ معطف اللهبِ
لكنهُ يبقى بخربتنا
أفعى
ويترك في حناجرنا
ظمأً
وفي دمنا ..
خلود الشوق والغضبِ

برقية من السجن

من آخر السجن، طارت كفٌّ أشعاري

تشدّ أيديكُمْ ريحاً .. على نارِ

أنا هنا، ووراء السورِ، أشجاري

تُطوِّعُ الجبلَ المغرورَ .. أشجاري

مذ جئتُ أدفع مهر الحرف، ما ارتفعتْ

غيرُ النجوم على أسلاك أسواري

أقول للمُحْكِم الأصفادَ حول يدي:

هذي أساور أشعاري وإصراري

في حجم مجدكُم نعلي، وقيدُ يدي

في طول عمركُم المجدولِ بالعارِ:

أقول للناس، للأحباب: نحن هنا

أسرى محبتكُمْ في الموكب الساري
في اليوم، أكبر عاماً في هوى وطني
فعانقوني عناق الريح للنارِ

السجن

تغيَّر عنوانُ بيتي

وموعدُ أكلي

ومقدار تبغي تغيَّر

ولون ثيابي، ووجهي، وشكلي

وحتى القمر

عزيزٌ عليَّ هنا ..

صار أحلى وأكبر

ورائحة الأرض: عطرٌ

وطعم الطبيعة: سُكّرْ

كأني على سطح بيتي القديم

ونجم جديد ..

بعيني تسمَّرْ

وشم العبيد

روما على جلودنا

أرقام أسرى. والسياطْ

تفكها إذا هوت، أو ترتخي ..

كان العبيد عزَّلاً

ففتتوا البلاط!

بابل حول جيدنا

وشمُ سبايا عائدهْ

تغيرت ملابس الطاغوتْ

من عاش بعد الموت

لو آمنت .. لا يموت

متنا وعشنا، والطريق واحده!

إفريقيا في رقصنا
طبل .. ونار حافيهْ
وشهوةٌ على دخان غانيه.
في ذات يوم .. أحسن العزف على
ناي الجذوع الهاويه.
أنوِّمُ الأفعى
وأرمي نابها في ناحيه
فتلتقي في رقصة جديدة .. جديدة
إفريقيا ... وآسيه!

صوت من الغابة

من غابة الزيتون
جاء الصدى ..
وكنتُ مصلوباً على النارِ!
أقول للغربان: لا تنهشي
فربما أرجعُ للدارِ
وربما تشتي السما
ربما ..
تطفىء هذا الخشب الضاري!

أنزل يوماً عن صليبي
ترى ..
كيف أعود حافياً .. عاري!؟

في انتظار العائدين

أكواخُ أحبابي على صدر الرمالِ
وأنا مع الأمطار ساهرْ ..
وأنا ابن عوليس الذي انتظر البريد من الشمالِ
ناداه بحّار، ولكن لم يسافرْ.
لجمَ المراكب، وانتحى أعلى الجبالِ
ـ يا صخرة صلّى عليها والدي لتصون ثائر
أنا لن أبيعك باللآلي.
أنا لن أُسافر ..
لن أُسافر ..
لن أُسافر!

أصوات أحبابي تشق الريح، تقتحم الحصونْ

ـ يا أُمنا انتظري أمام الباب. إنّا عائدون
هذا زمانٌ لا كما يتخيلون ..
بمشيئة الملاّح تجري الريح ..
والتيار يغلبه السفين!
ماذا طبخت لنا؟ فإنّا عائدون.
نهبوا خوابي الزيت، يا أُمي، وأكياس الطحين
هاتي بقول الحقل! هاتي العشب!
إنّا عائدون!

خطوات أحبابي أنين الصخر تحت يد الحديدِ
وأنا مع الأمطار ساهدْ
عبثاً أُحدِّقُ في البعيدِ
سأظل فوق الصخر .. تحت الصخر .. صامد

مطر

- ١ -

ناري،
وخمس زنابق شمعية في المزهريهْ
وعزاؤنا الموروث:
في الغيمات ماءْ
والأرض تعطش. والسماء
تروي. وخمس زنابق شمعية في المزهريهْ.

- ٢ -

عفويةٌ صلواتُ جدتنا، وكانْ
جدي يحب الكستنا
وطعام أُمي

قد كنت كالحمل الوديع
وكان همي
أن يفاجئنا الربيع!
يا جدي المرحوم! أهلاً بالمطر
يروي ثراك. فلا يزال السنديان
من يومها يدمي الحجر!

- ٣ -

لنقل مع الأجداد: خيرٌ!
هذا مخاض الأرض: خيرا!
تضع الوليد غداً .. ربيعاً أخضرا!
كعيون سائحة أطلَّتْ ذات فجر!
لا الأم أُمي ..
لا الوليد أخي، ولا
ذات العيون الخضر لي
وأقول: خيرا!

- ٤ -

يا نوح!
هبني غصن زيتونٍ

ووالدتي .. حمامه !

إنَّا صنعنا جنة

كانت نهايتها صناديق القمامه!

يا نوح!

لا ترحل بنا

إن الممات هنا سلامه

إنّا جذور لا تعيش بغير أرض ..

ولتكن أرضي قيامه!

قمر الشتاء

سألمُّ جثتك الشهيدهْ
وأُذيبها بالملح والكبريت ..
ثم أعبُّها ..
كالشاي
كالخمر الرديئة ..
كالقصيده
في سوق شعر خائب
وأقول للشعراء:
يا شعراء أُمتنا المجيده!
أنا قاتل القمر الذي
كنتم عبيده!!

سيقال: كالمتسول المنفي .. كانْ

ردّوه عن كل النوافذ

وهو يبحث عن حنان.

لا عاشقان

يَتَذَكَّران ...

ـ قلبي على قمر

تحجَّر في مكان

ويقال .. كان!

وأنا على الإسفلت

تحت الريح والأمطار

مطعون الجنان

لا تفتح الأبواب في وجهي

ولا تمتدّ نحو يدي يدان

عيني على قمر الشتاء ..

وقد ترمَّد في دمي ..

قلبي على قرص الدخان!

لا تظلموني أيها الجبناء

لـم أقتل سوى نذل جبان

بالأمس عاهدني

وحين أتيته في الصبح .. خان ..

خواطر في شارع

يا شارع الأضواء! ما لون السماءْ

وعلامَ يرقص هؤلاء؟

من أين أعبر، والصدور على الصدور

والساق فوق الساق. ما جدوى بكائي

أي عاصفة يفتتها البكاء؟

فتيممي يا مقلتي حتى يصير الماء ماء

وتحجَّري يا خطوتي!

هذا المساء ..

قدَرٌ أسلّمه سعير الكبرياء!

من أي عام ..

أمشي بلا لون، فلا أصحو ولا أغفو

وأبحث عن كلام؟

أتسلق الأشجار أحياناً

وأحياناً أجدِّف في الرغام

والشمس تشرق ثم تغرب .. والظلام

يعلو ويهبط. والحمام

ما زال يرمز للسلام!

يا شارع الأضواء، ما لون الظلام

وعلام يرقص هؤلاء؟

ومتى تكفُّ صديقتي بالأمس، قاتلتي

تكفُّ عن الخيانة والغناء؟

الجاز يدعوها؟

ولكنني أُناديها .. أُناديها .. أُناديها.

وصوت الجاز مصنوع

وصوتي ذوب قلب تحت طاحون المساء

لو مرة في العمر أبكي،

يا هدوء الأنبياء

لكن زهر النار يأبى أن يعرَّض للشتاء

يا وجه جدي

يا نبياً ما ابتسم

من أي قبر جئتني،
ولبست قمبازاً بلون دم عتيق
فوق صخره
وعباءة في لون حفره
يا وجه جدي
يا نبياً ما ابتسم
من أي قبر جئتني
لتحيلني تمثال سم.
الدين أكبرُ
لم أبع شبراً، ولم أخضع لضيم
لكنهم رقصوا وغنوا فوق قبرك ..
فلتنم
صاحِ أنا .. صاحِ أنا .. صاحِ أنا
حتى العدم

تحدٍّ

شُدّوا وثاقي

وامنعوا عني الدفاتر

والسجائرْ

وضعوا الترابَ على فمي

فالشعر دمُ القلب ..

ملح الخبز ..

ماءُ العين

يكتب بالأظافر

والمحاجر

والخناجر

سأقولها

في غرفة التوقيف.

في الحمام ..

في الإسطبل ..

تحت السوط ..

تحت القيد ..

في عنف السلاسل:

مليون عصفور

على أغصان قلبي

يخلق اللحن المقاتل

نـاي

لا تقتلوني أيها الرعاه

لا تعزفوا

خافوا عليَّ اللَّه

أستحلف الفحيح أن ينام

في ألحانكم ..

حتى أمرَّ في سلام

زنجار! يا قاتلتي زنجار

لا تنتظري

إني سمعتُ الناي

لا تنتظري

إني هجرتُ الدار!

المناديل

كمقابر الشهداء صمتُكِ
والطريق إلى امتدادِ
ويداكِ ... أذكرُ طائرين
يُحوِّمان على فؤادي
فَدَعي مخاض البرق
للأفق المعبَّأ بالسوادِ
وتوقَّعي قُبَلاً مُدمّاةً
ويوماً دون زادِ
وتعوَّدي ما دمت لي
موتي ... وأحزان البعادِ!
كفنٌ مناديل الوداع
وخفقُ ريح في الرمادِ

مـــا لــوَّحَــتْ، إلّا ودم ســـال
فــــــــــي أغـــــــــوار وادِ
وبـكـى، لـصـوتِ مـا، حـنـيـن
فـــي شـــراع الـــســنــدبــادِ
رُدّي، سـألـتُـكِ، شـهـقـة المنديـل
مـــــزمـــــاراً يـــــنـــــادي ..
فــرحــي بــأن ألــقــاكِ وعــداً
كــان يــكــبــر فــي بــعــادي
مـا لـي سـوى عـيـنيـك، لا تـبـكـي
عـــلـــى مـــوتِ مـــعـــادِ
لا تـسـتـعـيـري مـن مـنـاديـلـي
أنــــاشـــــيــــد الــــودادِ
أرجـوكِ! لـقّـيـهـا ضـمـاداً
حـــول جـــرحِ فـــي بـــلادي

خائف من القمر

خبِّئيني. أتى القمر
ليت مرآتنا حجر!
ألفُ سرّ سرّي
وصدركِ عارٍ
وعيون على الشجر
لا تغطّي كواكباً
ترشح الملح والخدر
خبِّئيني .. من القمر!
وجهُ أمسي مسافرٌ
ويدانا على سَفَر
منزلي كان خندقاً

لا أراجيح للقمر ..

خبّئيني .. بوحدتي

وخذي المجد .. والسهر

ودعي لي مخدَّتي

أنتِ عندي

أم القمر؟!

أبيـات غزل

سألتكِ: هزّي بأجمل كفّ على الأرض
غصنَ الزمان!
لتسقط أوراق ماض وحاضرْ
ويولد في لمحة توأمان:
ملاك .. وشاعر!
ونعرف كيف يعود الرماد لهيباً
إذا اعترف العاشقان!

أتُفاحتي! يا أَحبَّ حرام يباحْ
إذا فهمتْ مقلتاك شرودي وصمتي
أنا، عجباً، كيف تشكو الرياح
بقائي لديك؟ وأنتِ

خلودُ النبيذ بصوتي
وطعم الأساطير والأرض .. أنتِ!

لماذا يسافر نجم على برتقاله
ويشرب يشرب يشرب حتى الثمالهْ
إذا كنتِ بين يديّ
تفتَّتَ لحن، وصوت ابتهالهْ
لماذا أُحبك؟
كيف تخر بروقي لديك؟
وتتعب ريحي على شفتيك
فأعرف في لحظةٍ
بأن الليالي مخدَّه
وأن القمر
جميل كطلعة ورده
وأني وسيم .. لأني لديك!

أتبقين فوق ذراعي حمامه
تغمِّس منقارها في فمي؟

وكفُّك فوق جبينيَ شامه
تخلّد وعد الهوى في دمي؟
أتبقين فوق ذراعي حمامه
تجنّحني .. كي أطير
تهدهدني .. كي أنام
وتجعل لاسمِيَ نبض العبير
وتجعل بيتيَ برج حمام؟

أُريدك عندي
خيالاً يسير على قدمين!
وصخر حقيقه
يطير بغمزة عين!

لوحة على الأفق

رأيت جبينكِ الصيفيَّ
مرفوعاً على الشفقِ
(وشعركِ ماعز) يرعى
حشيش الغيم في الأفقِ
تودُّ العين .. لو طارت إليك
كما يطير النوم من سجني
يود القلب لو يحبو إليك
على حصى الحزنِ
يود الثغر لو يمتصّ
عن شفتيكِ ..
ملح البحر، والزمنِ
يود .. يود، لكنني

وراء حديد شباكي

أودِّع وجهك الباكيَ

غريقاً فوق دمّ الشمس ..

مهدوراً على الأفقِ

فأحمل فوق جرح القلب جرحين

ولكني .. أحاول أن أضمدها .. أوسِّدها

ذراع تمرُّد الحزنِ!

دعوة للتذكار

مرّي بذاكرتي!

فأسواق المدينهْ

مرَّتْ

وباب المطعم الشتوي

مرّ.

وقهوة الأمس السخينهْ

مرَّتْ.

وذاكرتي تنقرها ..

العصافير المهاجرة الحزينهْ

لم تنس شيئاً غير وجهك

كيف ضاع؟

وأنت مفتاحي إلى قلب المدينهْ؟

قصائد عن حب قديم

- ١ -

على الأنقاض وردتُنا

ووجهانا على الرملِ

إذا مرَّتْ رياحُ الصيفِ

أشرعنا المناديلا

على مهل .. على مهلِ

وغبنا طيَّ أُغنتين، كالأسرى

نراوغ قطرة الطلِّ

تعالي مرة في البال

يا أُختاه!

إن أواخر الليلِ

تعرّيني من الألوان والظلِّ

وتحميني من الذل!
وفي عينيك، يا قمري القديم،
يشدُّني أصلي
إلى إغفاءة زرقاء
تحت الشمس .. والنخلِ
بعيداً عن دجى المنفى ..
قريباً من حمى أهلي

- ٢ -

تشهَّيتُ الطفولة فيكِ.
مذ طارت عصافيرُ الربيعِ
تجرَّدَ الشجرُ
وصوتك كان، يا ما كان،
يأتيني
من الآبار أحياناً
وأحياناً ينقِّطه لي المطرُ
نقياً هكذا كالنارِ
كالأشجار .. كالأشعار ينهمرُ
تعالي

كان في عينيكِ شيء أشتهيهِ
وكنتُ أنتظرُ
وشدّيني إلىٰ زنديكِ
شديني أسيراً
منكِ يغتفرُ
تشهَّيت الطفولة فيك.
مذ طارت
عصافير الربيع ..
تجرَّد الشجرُ!

- ٣ -

.. ونعبر في الطريق
مكبَّلين ..
كأننا أسرى
يدي، لم أدر، أم يدُكِ
احتست وجعاً
من الأخرى؟
ولم تطلق، كعادتها،
بصدري أو بصدرك ..

سروة الذكرى
كأنّا عابرا دربٍ،
ككلِّ الناس،
إن نظرا
فلا شوقاً
ولا ندماً
ولا شزرا
ونغطس في الزحام
لنشتري أشياءنا الصغرى
ولم نترك لليلتنا
رماداً .. يذكر الجمرا
وشيء في شراييني
يناديني
لأشرب من يديك
بقيّة الذكرى

- ٤ -

ترجَّلَ، مرةً، كوكبْ
وسار على أناملنا
ولم يتعبْ

وحين رشفتُ عن شفتيك
ماء التوت
أقبل، عندها، يشربْ
وحين كتبتُ عن عينيك
نَقَّط كل ما أكتب
وشاركنا وسادتنا ..
وقهوتنا
وحين ذهبتِ ..
لم يذهب
لعلي صرت منسياً
لديكِ
كغيمة في الريح
نازلة إلى المغربْ ..
ولكنني إذا حاولتُ
أن أنساك ..
حَطَّ على يدي كوكبْ

- ٥ -

لكِ المجدُ
تجنَّحَ في خيالي

من صداك ..
السجنُ، والقيدُ
أراك، إذا استندتُ
إلى وسادِ
مهرةً .. تعدو
أحسكِ في ليالي البرد
شمساً
في دمي تشدو
أُسميك الطفولة
يشرئبّ أمامي النهدُ
أُسميكِ الربيع
فتشمخ الأعشاب والوردُ
أُسميكِ السماء
فتشمت الأمطار والرعدُ
لك المجدُ
فليس لفرحتي بتحيُّري
حدٌّ
وليس لموعدي .. وعدُ

لك المجدُ

- ٦ -

وأدركَنا المساءُ ..
وكانت الشمسُ
تسرِّح شعرها في البحرْ
وآخر قبلة ترسو
على عينيَّ مثل الجمرْ
ـ خذي مني الرياح
وقبِّليني
لآخر مرة في العمر
... وأدركها الصباحُ
وكانت الشمسُ
تمشط شعرها في الشرقْ
لها الحنّاء والعرسُ
وتذكرة لقصر الرق
ـ خذي مني الأغاني
واذكريني ..
كلمح البرقْ

وأدركني المساء
وكانت الأجراسْ
تدق لموكب المسبية الحسناءْ
وقلبي بارد كالماسْ
وأحلامي صناديقٌ على الميناء
ـ خذي مني الربيع
وودِّعيني ..

أبـي

غَضَّ طرفاً عن القمرْ

وانحنى يحضن التراب

وصلّى..

لسماء بلا مطر،

ونهاني عن السفر!

أشعل البرقُ أوديهْ

كان فيها أبي

يربي الحجارا

من قديم .. ويخلق الأشجارا

جلدُهُ ينـدفُ الندى

يدهُ تورقُ الشجرْ

فبكى الأفق أغنيهْ:
ـ كان أوديس فارساً ..
كان في البيت أرغفهْ
ونبيذ، وأغطيه
وخيول، وأحذيهْ
وأبي قال مرة
حين صلّى على حجرْ:
غُضَّ طرفاً عن القمر
واحذر البحر .. والسفر!

يوم كان الإله يجلد عبدَهْ
قلت: يا ناس! نكفُر؟
فروى لي أبي .. وطأطأ زنده:
في حوار مع العذاب
كان أيوب يشكُر
خالق الدود .. والسحاب!
خُلق الجرحُ لي أنا
لا لميْت .. ولا صنمْ

فدع الجرح والألم
وأعِنّي على الندم!

مرَّ في الأفق كوكبُ
نازلاً .. نازلاً
وكان قميصي
بين نار، وبين ريحْ
وعيوني تفكّر
برسوم على التراب
وأبي قال مرة:
الذي ما له وطن
ما له في الثرى ضريح
.. ونهاني عن السفر!

نشيد

- ١ -

لأجمل ضفة أمشي
فلا تحزن على قدمي
من الأشواك
إن خطايَ مثل الشمس
لا تقوى بدون دمي!
لأجل ضفة أمشي
فلا تحزن على قلبي
من القرصان ..
إن فؤاديَ المعجون كالأرضِ
نسيم في يد الحبّ

وبارود على البغضِ!
لأجمل ضفة أمشي
فإمّا تهترئ نعلي
أضع رمشي
ولا أقفُ
ولا أهفو إلى نوم وأرتجف
لأن سرير من ناموا
بمنتصف الطريق ..
كخشبة النعشِ!
تعالوا يا رفاق القيد والأحزان
كي نمشي
لأجمل ضفة نمشي
فلن نقهرْ
ولن نخسر
سوى النعشِ!

- ٢ -

إلى الأعلى
حناجرنا

إلى الأعلى

محاجرنا

إلى الأعلى

أمانينا

إلى الأعلى

أغانينا

سنصنع من مشانقنا

ومن صلبان حاضرنا وماضينا

سلالم للغد الموعود

ثم نصيح: يا رضوان!

إفتحْ بابك الموصود!

سنطلقُ من حناجرنا

ومن شكوى مراثينا

قصائد، كالنبيذ الحلو

تكرع في ملاهينا

وننشدُ في الشوارع

في المصانع

في المحاجر

في المزارع

في نوادينا!

سننصب من محاجرنا

مراصد، تكشف الأبعد والأعمق والأروعْ

فلا نقشعْ

سوى الفجرِ

ولا نسمع

سوى النصرِ

فكل تمرد في الأرضْ

يزلزلنا

وكل جميلة في الأرض

تقبِّلنا

وكل حديقة في الأرض

نأكل حبة منها

وكل قصيدة في الأرض

إذا رقصت نخاصرها

وكل يتيمة في الأرض

إذا نادت نناصرها

سنخرج من معسكرنا
ومنفانا
سنخرج من مخابينا
ويشتمنا أعادينا:
«هلا .. همج همُ .. عرب»
نعم! عربُ
ولا نخجلْ
ونعرف كيف نمسك قبضة المنجل
وكيف يقاوم الأعزل
ونعرف كيف نبني المصنع العصريَّ
والمنزل ..
ومستشفى
ومدرسة
وقنبلة
وصاروخاً
وموسيقى
ونكتب أجمل الأشعار ..

صوت:

وماذا بعد؟

سمعنا صوتك المدهون بالفسفور

سمعناه .. سمعناهُ

فكيف ستجعل الكلماتُ

أكواخ الدجى .. بلّورا!

ودربك كله ديجور

وشعبك ..

دمعة تبكي زمان النور

وأرضك ..

نقش سجاده

على الطرقات مرميَّه

وأنت .. بدون زوّاده

وماذا بعد؟ ماذا بعد؟

جميلٌ صوتك المحمول بالريح الشماليَّه

ولكنا سئمناهُ!

صوت:

ذليلٌ أنت كالإسفلتْ

ذليل أنت

يا من يحتمي بستارة الضجرِ

غبيٌّ أنت .. كالقمرِ
ومصلوب على حجرِ
فدعني أكمل الإنشاد
دعني أحمل الريح الشماليَّه
ودعني أحبس الأعصار في كمي
ودعني أخزن الديناميت في دمي
ذليل أنت كالإسفلتْ
وكالقمرِ ..
غبيٌّ أنت!

نشيد بنات طروادة

وداعاً يا ليالي الطهر
يا أسوار طرواده
خرجنا من مخابينا
إلى أعراس غازينا
لنرقص فوق موت رجال طرواده
سبايا نحن، نعطيهم بكارتنا
وما شاؤوا
لأنهمُ أشدّاءُ

ونرقد في مضاجع قاتلي أبطال طرواده

وداعاً يا ليالي الطهر والأحلام
يا ذكرى أحبتنا
سبايا نحن منذ اليوم
من آثار طرواده!

تعليق على النشيد

بلى. أصغيتُ للنغمِ
فلا تُخضع لجناز الردى
قيثارك المشدود ..
من قاع المحيط لجبهة القمم!
لئلا تجهض الأزهار والكبريت
فوق فمِ
سيزهر مرة طلعاً وقنديلاً
وشعراً يصهر الفولاذ ..
يرصف شارع النغمِ
لئلّا تحقن الأجساد
أفيوناً من الألمِ
نعم. أصغيتُ للنغمِ

ولكني، تحرَّيت السنا في الدمع
لا ديمومة الظلمِ
لنحرق ريشة الماضي
ونعزف لحننا الرائد!
فمن عزمي
ومن عزمك
ومن لحمي
ومن لحمك
نعبِّد شارع المستقبل الصاعد

صوت:

وماذا بعد؟ ماذا بعدْ!
وشعبك ..
دمعة ترثي زمان المجد
ولحن القيد
يجنِّزنا
ويحفر للذين يقاومون اللحد!

مع المسيح

ـ ألو ..

ـ أُريد يسوع

ـ نعم! من أنت!

ـ أنا أحكي من «إسرائيل»

وفي قدمي مسامير .. وإكليل

من الأشواك أحمله

فأي سبيل

أختار يا بن الله .. أي سبيل؟

أأكفر بالخلاص الحلو

أم أمشي؟

ولو أمشي وأحتضرُ؟

ـ أقول لكم: أماماً أيها البشرُ!

مع محمد

ـ ألو ..

ـ أُريد محمد العربِ

ـ نعم! من أنت؟

ـ سجين في بلادي

بلا أرض

بلا علم

بلا بيتِ
رموا أهلي إلى المنفى
وجاؤوا يشترون النار من صوتي
لأخرج من ظلام السجن ..
ما أفعلْ؟
ـ تحدَّ السجن والسجّان
فإن حلاوة الإيمان
تذيب مرارة الحنظلْ!

مع حبقوق

ـ ألو .. هالو!
أموجودِ هنا حبقوق؟
ـ نعم من أنت؟
ـ أنا يا سيدي عربي
وكانت لي يدٌ تزرع
تراباً سمَّدته يدا وعين أبي
وكانت لي خطى وعباءة ..
وعمامة ودفوف
وكانت لي ..

ـ كفى يا ابني!
على قلبي حكايتكم
على قلبي سكاكينُ

بقية النشيد

دعوني أُكمل الإنشاد
فإن هدية الأجداد للأحفاد:
«زرعنا .. فاحصدوا!»
والصوت يأتينا سماداً
يغرق الصحراء بالمطرِ
ويُخصب عاقر الشجرِ!
دعوني أُكمل الإنشاد

صلاة أخيـرة

يُخَيَّلُ لي أن عمري قصير

وأني على الأرض سائح

وأن صديقة قلبي الكسير

تخون إذا غبتُ عنها

وتشرب خمرا

وتكتب شعرا

لغيري،

لأني على الأرض سائح!

يخيّل لي أن خنجر غدرٍ

سيحفر ظهري

فتكتب إحدى الجرائد:

«كان يجاهد»
ويحزن أهلي وجيراننا
ويفرح أعداؤنا
وبعد شهور قليله
يقولون: كان!

يخيّل لي أن شِعري الحزينْ
وهذي المراثي، ستصبح ذكرى
وأن أغاني الفرح
وقوس قزح
سينشدها آخرون
وأن فمي سوف يبقى مدمًّى
على الرملِ والعوسجِ
فشكراً لمن يحملون
توابيت أمواتهم!
وعفواً من المبصرين
أماميَ لافتة النجم
في ليله المدلجِ!
يخيّل لي يا صليب بلادي

ستحرق يوماً
وتصبح ذكرى ووشماً
وحين سينزل عنك رمادي
ستضحك عينُ القدر
وتغمز: ماتا معاً
لو أني، لو أني
أقبّل حتى الحجر
وأهتف: لم تبق إلّا بلادي!

بلاديَ! يا طفلة أمَةً
تموت القيود على قدميها
لتأتي قيود جديده
متى نشرب الكأس نخبك
حتى ولو في قصيده؟
ففرعون مات

ونيرون مات
وكل السنابل في أَرض بابلَ
عادت إليها الحياة!
متى نشرب الكأس نخبك

حتى ولو في الأغاني
أيا مهرة يمتطيها طغاة الزمان
وتفلت منا
من الزمن الأولِ
ـ لجامك هذا .. دمي!
ـ وسرجك هذا .. دمي
إلى أين أنت إذن رائحه
أنا قد وصلت إلى حُفْرةٍ
وأنت أماماً .. أماماً
إلى أين؟
يا مهرتي الجامحه؟!

يخيّل لي أن بحر الرماد
سينبتُ بعدي
نبيذاً وقمحاً
وأني لن أطعمه
لأني بظلمة لحدي
وحيدٌ مع الجمجمه
وفي شفتي بسمة منعمه

لأني صنعتُ مع الآخرين
خميرة أيامنا القادمه
وأخشاب مركبنا في بحار الرماد

يخيّل لي أن عمري قصير
وأني على الأرض سائح
ولو بقيت في دمي
نبضة واحدهْ
تعيد الحياة إليَّ
لو أني
أُفارق شوك مسالكنا الصاعده
لقلت: آدفنونيَ حالاً
أنا توأم القمة المارده!!

آخر الليل
١٩٦٧

تحت الشبابيك العتيقة

«إلى مدينة القدس»

---

١ ـ الجرح القديم

واقفٌ تحت الشبابيك،
على الشارع واقفْ
درجات السلّم المهجور لا تعرف خطوي
لا ولا الشبّاك عارفْ.
من يد النخلة أصطادُ سحابه
عندما تسقط في حلقي ذبابه
وعلى أنقاض إنسانيتي
تعبرُ الشمسُ وأقدامُ العواصفْ
واقفٌ تحت الشبابيك العتيقه
من يدي يهرب دُوريٌّ وأزهار حديقه
اسأليني: كم من العمر مضى حتى تلاقى
كلُّ هذا اللون والموت، تلاقى بدقيقه؟

وأنا أجتازُ سرداباً من النسيان،
والفلفل، والصوت النحاسي
من يدي يهرب دوريٌّ ..
وفي عيني ينوب الصمت عن قول الحقيقه!

عندما تنفجر الريح بجلدي
وتكفُّ الشمسُ عن طهو النعاسْ
وأُسمّي كل شيء باسمه،
عندها أبتاع مفتاحاً وشباكاً جديداً
بأناشيد الحماس!

ـ أيها القلبُ الذي يُحرم من شمس النهار
ومن الأزهار والعيد، كَفانا!
علمونا أن نصون الحب بالكره!
وأن نكسو ندى الوردِ .. غبار!
ـ أيها الصوتُ الذي رفرف في لحمي
عصافير لهبْ،
علّمونا أن نُغني، ونحب
كلَّ ما يطلعه الحقلُ من العُشْب،

من النمل، وما يتركه الصيفُ على أطلال دارِ
علّمونا أن نُغني، ونداري
حبَّنا الوحشيَّ، كي لا
يصبح الترنيم بالحب مملاًّ!
عندما تنفجر الريحُ بجلدي
سأسمّي كلَّ شيء باسمه
وأدق الحزن والليل بقيدي
يا شبابيكي القديمه ..!

٢ ـ أغنية حب على الصليب

مدينةَ كل الجروح الصغيره
ألا تخمدين يديَّ؟
ألا تبعثين غزالاً إليَّ؟
وعن جبهتي تنفضين الدخان .. وعن رئتيَّ؟!

حنيني إليك .. اغترابْ
ولقياك .. منفى!
أدقُّ على كل باب ..
أُنادي، وأسأل، كيفَ
تصير النجومُ تراب؟

أحبكِ، كوني صليبي
وكوني، كما شئتِ، بُرْجَ حمامْ

إذا ذوَّبتني يداك
ملأت الصحارى غمام

لحبك يا كلَّ حبي، مذاقُ الزبيبْ
وطعم الدمِ
على جبهتي قمر لا يغيب
ونارٌ وقيثارة في فمي!

إذا متُّ حبّاً فلا تدفنيني
وخلي ضريحي رموش الرياح
لأزرع صوتك في كل طين
وأشهر سيفك في كل ساح

أحبك، كوني صليبي
وما شئت كوني
وكالشمس ذوبي
بقلبي .. ولا ترحميني ..

٣ ـ خارج من الأسطورة

إنني أنهضُ من قاع الأساطير
وأصطاد على كل السطوح النائمه
خطوات الأهل والأحباب .. أصطاد نجومي القاتمه
إنني أمشي على مهلي، وقلبي مثل نصف البرتقالهْ
وأنا أعجب للقلب الذي يحمل حاره
وجبالاً، كيف لا يسأم حاله!
وأنا أمشي على مهلي.. وعيني تقرأ الأسماءَ
والغيمَ على كل الحجاره
وعلى جيدك يا ذات العيون السود
يا سيفي المذهَّبْ
ها أنا أنهض من قاع الأساطير .. وألعبْ
مثل دوريٍّ على الأرض ... وأشرب

من سحاب عالق في ذيل زيتون ونخلِ
ها أنا أشتمُّ أحبابي وأهلي
فيك، يا ذات العيون السود ... يا ثوبي المقصَّب
لم تزل كفّاك تليّن من الخضرة، والقمح المذهَّبْ
وعلى عينيك ما زال بساطُ الصحو
بالوشم الحريريِّ .. مكوكب!

إنني أقرأ في عينيك ميلاد النهارْ
إنني أقرأ أسرار العواصف
لم تشيخي .. لم تخوني .. لم تموتي
إنما غيَّرتِ ألوان المعاطف
عندما انهار الأحبّاء الكبار
وامتشقنا، لملاقاة البنادق
باقة من أغنيات وزنابق!
آه .. يا ذات العيون السود، والوجه المعفَّرْ
يشرب الشارعُ والملحُ دمي
كلما مرت على باليَ أقمارُ الطفوله
خلف أسوارك يا سجن المواويل الطويلهْ
خلف أسوارك، ربَّيت عصافيري
ونحلي، ونبيذي، وخميلهْ

٤ ـ اعتذار

حلمتُ بعرس الطفولهْ
بعينين واسعتين حلمت
حلمتُ بذات الجديلهْ

حلمتُ بزيتونةٍ لا تُباع
ببعض قروشٍ قليلهْ
حلمتُ بأسوار تاريخِكِ المستحيلهْ
حلمتُ برائحة اللوز
تشعل حزن الليالي الطويلهْ
بأهلي حلمت ..
بساعد أُختي
سيلتفُّ حولي وِشاحَ بطولهْ

حلمت بليلة صيف

بسلّة تين

حلمتُ كثيراً

كثيراً حلمتُ ..

إذن سامحيني!!.

٥ ـ المستحيل

أموت اشتياقاً
أموت احتراقاً
وشنقاً أموت
وذبحاً أموت
ولكنني لا أقول:
مضى حبنا، وانقضى
حبنا لا يموت

٦ ـ الورد والقاموس

وليكن.
لا بدّ لي ..
لا بدّ للشاعر من نخب جديدْ
وأناشيد جديدة
إنني أحمل مفتاح الأساطير وآثار العبيد
وأنا أجتاز سرداباً من النسيان
والفلفل، والصيف القديم
وأرى التاريخ في هيئة شيخ،
يلعب النرد ويمتصُّ النجوم

وليكن
لا بدَّ لي أن أرفض الموت،

وإن كانت أساطيري تموت
إنني أبحث في الأنقاض عن ضوء، وعن شعر جديد
آه .. هل أدركت قبل اليوم
إن الحرف في القاموس، يا حبي، بليد
كيف تحيا كلُّ هذي الكلمات!
كيف تنمو؟ .. كيف تكبر؟
نحن ما زلنا نغذيها دموع الذكريات
واستعارات .. وسُكَّرا!
وليكن ..
لا بد لي أن أرفض الورد الذي
يأتي من القاموس، أو ديوان شعر
ينبت الورد على ساعد فلّاح، وفي قبضة عامل
ينبت الورد على جرح مقاتل
وعلى جبهة صخر ..

٧ ـ وعود من العاصفة

وليكن ...
لا بدَّ لي أن أرفض الموت
وأن أحرق دمع الأغنيات الراعفة
وأعرّي شجر الزيتون من كل الغصون الزائفةْ
فإذا كنت أُغني للفرحْ
خلف أجفان العيون الخائفةْ
فلأنَّ العاصفةْ
وعدتني بنبيذ .. وبأنخاب جديده
وبأقواس قزح
ولأن العاصفةْ
كنَست صوت العصافير البليده

والغصون المستعاره

عن جذوع الشجرات الواقفهْ.

وليكن ..

لا بدَّ لي أن أتباهى، بك، يا جرح المدينهْ

أنت يا لوحة برق في ليالينا الحزينهْ

يعبس الشارع في وجهي

فتحميني من الظل ونظرات الضغينهْ

سأغني للفرح

خلف أجفان العيون الخائفهْ

منذ هبت، في بلادي، العاصفهْ

وعدتني بنبيذ، وبأقواس قزح

مـوال

خـسـرتُ حـلـمـاً جـمـيـلاً   خـسـرت لـسـع الـزنـابـقْ
وكـان لـيـلـي طـويـلاً   عـلـى سـيـاج الحدائـقْ
وما خسرت السبيلا

*

عـوَّدتُ قـلـبـي وكـفـي   عـلـى جـراح الأمـانـي
هـزي يـدَيَّ بـعـنـف   لـكـي تـسـيـل الأغـانـي
يا أم مهري وسيفي!

*

«يمّا .. مويل الهوى
«يمّا .. مويليّا
«ضرب الخناجر .. ولا
«حكم النذل فيّا

يــداك فــوق جــبــيني تــاجــان مــن كــبــريــاءْ
إذا انــحــنــيــتُ، انــحــنــى تــلٌّ، وضــاعــت ســمــاءْ
ولا أعــود جــديــراً بــقــبــلــة أو دعــاءْ
والبابُ يُوصَدُ دوني

*

كــونـي عــلـى شــفــتــيّــا اســمــاً لــكــل الــفــصــول
لم يــأخــذوا مــن يــديّــا إلاّ مــنــاخ الحــقــول
وأنت عندي دنيا!

*

«يمّا .. مويل الهوى
«يمّا .. مويليّا
«ضرب الخناجر .. ولا
«حكم النذل فيّا

*

الــريــح تــنــعــس عــنــدي عــلــى جــبــين ابــتــسامــه
والــقــيــد خــاتمُ مــجــد وشــامــةٌ لــلــكــرامــه
وساعدي .. للتحدي

*

عــلــى يــديــك تــصــلــي طــفــولــةُ الــمــســتــقــبــلْ

وخلف جفنيك، طفلي   يقول: يوميَ أجملْ
وأنت شمسي وظلي

*

«يمّا .. مويل الهوى
«يمّا .. مويليّا
«ضرب الخناجر .. ولا
«حكم النذل فيّا

*

الأرض، أم أنت عندي   أم أنتما توأمان
من مدَّ للشمس زندي؟   الأرض، أم مقلتان
سيان سيان ... عندي

*

إذا خسرت الصديقه   فقدتُ طعم السنابلْ
وإن فقدت الحديقه   ضَيَّعت عطر الجدائلْ
وضاع حلم الحقيقه

*

عن الورود أُدافعْ   شوقاً إلى شفتيكِ
وعن تراب الشوارع   خوفاً على قدميكِ
وعن دفاعي أُدافع

*

«يمّا مويل الهوى

«يمّا .. مويليّا

«ضرب الخناجر .. ولا

«حكم النذل فيّا

لا تنامي .. حبيبتي

عندما يسقط القمر
كالمرايا المحطمه
يكبر الظلُّ بيننا
والأساطير تحتضر
لا تنامي .. حبيبتي
جرحنا صار أوسمه
صار ورداً على قمر ...!

خلف شباكنا نهارْ
وذراع من الرضا
عندما لفني وطار
خلتُ أني فراشةٌ

فـــي قـــنـــاديـــل جـــلَّـــنـــارْ
وشـــفـــاهٌ مـــن الـــنـــدى
حـــاورَتْـــنـــي بـــلا حـــوارْ!
لا تـــنـــامـــي ... حـــبـــيـــبـــتـــي
خـــلـــف شـــبـــاكـــنـــا نـــهـــارْ!

ســـقـــط الـــوردُ مـــن يـــدي
لا عـــبـــيـــر، ولا خَـــدَرْ
لا تـــنـــامـــي .. حـــبـــيـــبـــتـــي
الـــعـــصـــافـــيـــر تـــنـــتـــحـــر
ورمـــوشـــي ســـنـــابـــلٌ
تـــشـــرب الـــلـــيـــلَ والـــقـــدرْ
صـــوتُـــك الـــحُـــلْـــوُ قـــبـــلـــةٌ
وجـــنـــاحٌ عـــلـــى وتـــر
غُـــصْـــنُ زيـــتـــونـــةٍ بـــكـــى
فـــي المـــنـــافـــي عـــلـــى حـــجـــر
بـــاحـــثـــاً عـــن أُصـــولـــهِ
وعـــن الـــشـــمـــس والـــمـــطـــرْ

لا تنامي .. حبيبتي
العصافير تنتحرْ

عندما يسقط القمر
كالمرايا المحطمه
يشرب الظلُّ عارنا
ونُداري فرارَنا
عندما يسقط القمر
يصبح الحب ملحمه
لا تنامي .. حبيبتي
جرحنا صار أوسمه
ويدانا على الدجى
عندليبٌ على وترْ

كبر الأسير

تتموَّج الذكرى، وبياراتُ أهلي
خلف نافذة القطارْ
وتغوص، تحت الرمل والبارود، دارْ
كل النوافذ أُشرعت في ذات يوم
للعيون السود، واحترق النهارْ
وَلَعاً بساحتك الصغيره
وأنا كبرتُ .. كبرتُ ..
حَطَّمْتُ المرايا كُلَّها،
ونفضتُ أجنحةَ الغبارْ
عن جنَّة نبتت بصورَهْ
ورأيت وجهك في السنابلِ
وهي تبحر في سماء الضوء

في فرح الضفيره
يا حبي الباقي على لحمي هلالاً في إطار!
أترى إلى كل الجبال، وكل بيارات أهلي
كيف صارت كلّها .. صارت أسيره؟
وأنا كبرتُ، كبرتُ يا حبي القديم مع الجدار
كبر الأسير، وأنت توقدُ
في ليالي التيه أُغنيةً ونار
وتموت، وحدك، دون دار

ريتا والبندقية

بين ريتا وعيوني .. بندقيَّةْ
والذي يعرف ريتا، ينحني
ويصلي
لإلهِ في العيون العسليَّةْ

.. وأنا قبَّلت ريتا
عندما كانت صغيرهْ
وأنا أذكر كيف التصقتْ
بي، وغَطَّتْ ساعدي أحلى ضفيره
وأنا أذكر ريتا
مثلما يذكر عصفورٌ غديرَهْ
آه .. ريتا

بيننا مليون عصفور وصوره
ومواعيدُ كثيره
أطلقت ناراً عليها .. بندقيَّهْ

إسمُ ريتا كان عيداً في فمي
جسم ريتا كان عرساً في دمي
وأنا ضعت بريتا .. سنَتينِ.
وهي نامت فوق زندي سنتين
وتعاهدنا على أجمل كأس، واحترقنا
في نبيذ الشفتين
وولدنا مرتين!
آه .. ريتا
أي شيء ردَّ عن عينيك عينيَّ
سوى إغفاءتين
وغيوم عسليَّهْ
قبل هذي البندقيَّهْ!
كان يا ما كان
يا صمت العشيّهْ

قمري هاجَر في الصبح بعيداً

في العيون العسليّةْ

والمدينة

كنست كل المغنين، وريتا

بين ريتا وعيوني .. بندقيّةْ

جندي يحلم بالزنابق البيضاء

يحلُمُ بالزنابق البيضاءْ

بغصن زيتونٍ ..

بصدرها المورق في المساء

يحلمُ ـ قال لي ـ بطائر

بزهر ليمونٍ

ولم يفلسف حلمه، لم يفهم الأشياء

إلّا كما يحسّها .. يشمّها

يفهم ـ قال لي ـ إنَّ الوطنْ

أن أحتسي قهوة أمي

أن أعود في المساء ..

سألته: والأرض؟

قال: لا أعرفها

ولا أحس أنها جلدي ونبضي
مثلما يُقال في القصائدْ
وفجأة، رأيتها
كما أرى الحانوت .. والشارع .. والجرائد
سألته: تحبُّها
أجاب: حبي نزهةٌ قصيرةً
أو كأس خمر .. أو مغامره
ـ من أجلها تموت؟
ـ كلاّ!
وكل ما يربطني بالأرض من أواصرِ
مقالةٌ نارية .. محاضرةْ!
قد عَلّموني أن أُحب حُبَّها
ولم أحس أن قلبها قلبي،
ولم أشم العشب، والجذور، والغصون ..
ـ وكيف كان حبّها
يلسع كالشموس .. كالحنين؟
أجابني مواجهاً:
ـ وسيلتي للحب بندقيهْ

وعودةُ الأعياد من خرائب قديمه
وصمت تمثال قديم
ضائع الزمان والهويهْ!

*

حدَّثني عن لحظة الوداع
وكيف كانت أُمُّهُ
تبكي بصمت عندما ساقوه
إلى مكان ما من الجبههْ
وكان صوت أُمه الملتاع
يحفر تحت جلده أُمنية جديدة:
لو يكبر الحمام في وزارة الدفاعْ
لو يكبر الحمام! ..

*

.. دخّن، ثم قال لي
كأنه يهرب من مستنقع الدماء:
حلمتُ بالزنابق البيضاءْ
بغصن زيتونٍ ..
بطائر يعانق الصباح

فوق غصن ليمون ..

ـ وما رأيتْ؟

ـ رأيتُ ما صنعتْ

عوسجةً حمراء

فجَّرتها في الرمل.. في الصدور .. في البطون ..

ـ وكم قتلتْ؟

ـ يصعب أن أعدّهم ..

لكنني نلت وساماً واحداً

سألته، معذباً نفسي، إذن

صف لي قتيلاً واحداً.

أصلَحَ من جلسته، وداعب الجريدة المطويّهْ

وقال لي كأنه يُسمعني أُغنيهْ:

كخيمة هوى على الحصى

وعانق الكواكب المحطمهْ

كان على جبينه الواسع تاجٌ من دم

وصدره بدون أوسمهْ

لأنه لم يُحسن القتال

يبدو أنه مزارع أو عامل أو بائع جوال

كخيمة هوى على الحصى .. ومات..
كانت ذراعاهُ
ممدودتين مثل جدولين يابسين
وعندما فتَّشْتُ في جيوبهِ
عن اسمه، وجدتُ صورتين
واحدة .. لزوجته
واحدةً .. لطفلته ..
سألته: حزنت؟
أجابني مقاطعاً: يا صاحبي محمود
الحزنُ طيرٌ أبيضٌ
لا يقرب الميدان. والجنود
يرتكبون الإثم حين يحزنون
كنتُ هناك آلةً تنفث ناراً وردى
وتجعل الفضاء طيراً أسودا

*

حدَّثني عن حبه الأولِ،
فيما بعد
عن شوارع بعيدهْ،

وعن ردود الفعل بعد الحرب
عن بطولة المذياع والجريدهْ
وعندما خبأ في منديله سعلته
سألته: أنلتقي؟
أجاب: في مدينة بعيدهْ

حين ملأت كأسه سألته
مماحكاً: ترحل .. والوطن؟
أجاب: دعني ..
إنني أحلم بالزنابق البيضاء
بشارع مغرّد ومنزل مضاء
أُريد قلباً طيباً، لا حشو بندقيهْ
أُريد يوماً مشمساً، لا لحظة انتصار
مجنونةً .. فاشيَّهْ
أُريد طفلاً باسماً يضحك للنهار،
لا قطعةً في الآلة الحربيهْ
جئت لأحيا مطلع الشموس
لا مغربها.

*

ودعني، لأنه .. يبحث عن زنابق بيضاء
عن طائر يستقبل الصباح
فوق غصن زيتون
لأنه لا يفهم الأشياء
إلّا كما يحسها .. يشمّها
يفهم ـ قال لي ـ إن الوطن
أن أحتسي قهوة أُمي ..
أن أعود، آمناً، مع المساء

أغنية ساذجة عن الصليب الأحمر

هل لكل الناس، في كل مكانِ
أذرع تطلع خبزاً وأماني
ونشيداً وطنياً؟
فلماذا يا أبي نأكل غُصْنَ السنديانِ
ونغني، خلسة، شعراً شجياً؟
يا أبي! نحن بخير وأمانِ
بين أحضان الصليب الأحمرِ!

*

عندما تُفرغ أكياسُ الطحينِ
يصبح البدرُ رغيفاً في عيوني
فلماذا يا أبي، بعتَ زغاريدي وديني
بفُتاتٍ وبجبنٍ أصفرِ

في حوانيت الصليب الأحمرِ؟

*

يا أبي! هل غابة الزيتون تحمينا إذا جاء المطر؟
وهل الأشجار تغنينا عن النار، وهل ضوء القمر
سيذيب الثلج، أو يحرق أشباح الليالي
إنني أسألُ مليون سؤال
وبعينيك أرى صمتَ الحجر
فأجبني، يا أبي، أنت أبي
أم تراني صرت إبناً للصليب الأحمرِ؟!

*

يا أبي! هل تنبت الأزهارُ في ظل الصليبْ؟
هل يغني عندليبْ؟
فلماذا نسفوا بيتي الصغيرا
ولماذا، يا أبي، تحلم بالشمس إذا جاء المغيب؟
وتناديني، تناديني كثيراً
وأنا أحلم بالحلوى وحبات الزبيبْ
في دكاكين الصليب الأحمرِ
حرموني من أراجيح النهار

عجنوا بالوحل خبزي .. ورموشي بالغبار
أخذوا مني حصاني الخشبي
جعلوني أحمل الأثقال عن ظهر أبي
جعلوني أحمل الليلةَ عام
آه من فجرّني في لحظةٍ جدول نار؟
آه، من يسلبني طبع الحمام
تحت أعلام الصليب الأحمرِ!

ملاحظة على الأغنية

أخذوا منك الحصان الخشبي
أخذوا، لا بأس، ظلَّ الكوكبِ
يا صبي!
يا زهرة البركان، يا نبض يدي
إنني أبصر في عينيك ميلاد الغدِ
وجواداً غاص في لحم أبي
نحن أدرى بالشياطين التي تجعل من طفل نبيّا
قل مع القائل: ... لم أسألك عبئاً هيناً
يا إلهي! أعطني ظهراً قويّا ..!
أخذوا باباً .. ليعطوك رياح

فتحوا جرحاً ليعطوك صباح
هدموا بيتاً لكي تبني وطن
حَسَنٌ هذا .. حسن
نحن أدرى بالشياطين التي تجعل من طفل نبيّا
قل مع القائل: ... لم أسألك عبئاً هيناً
يا إلهي! أعطني ظهراً قويا..!

أزهار الدم

١ ـ مغني الدم

لمُغنّيكِ، على الزيتون، خمسون وترْ
ومغنيك أسيراً كان للريح، وعبداً للمطر
ومغنيك الذي تاب عن النوم تسلّى بالسهر
سيُسمّي طلعة الورد، كما شئتِ شررْ
سيُسمّي غابة الزيتون في عينيك، ميلاد سحر
وسيبكي، هكذا اعتاد،
إذا مرَّ نسيم فوق خمسين وترْ
آه يا خمسين لحناً دموياً
كيف صارت بركة الدمِّ نجوماً وشجر؟
الذي مات هو القاتل يا قيثارتي
ومغنيك انتصر!
إفتحي الأبواب يا قريتنا

إفتحيها للرياح الأربع

ودعي خمسين جرحاً يتوهَّج

كُفْرُ قاسم ..

قرية تحلم بالقمح، وأزهار البنفسج

وبأعراس الحمائم

.. .. ..

ـ أحصدوهم دفعة واحدة

أحصدوهم

.. .. ..

.. .. حصدوهم ..

.. .. ..

آه يا سنبلةَ القمح على صدر الحقول

ومغنيك يقول:

ليتني أعرف سرَّ الشجره

ليتني أدفن كل الكلمات الميته

ليت لي قوة صمت المقبره

يا يداً تعزف، يا للعار! خمسين وترْ

ليتني أكتب بالمنجل تاريخي

وبالفأس حياتي،
وجناح القُبرةْ

... ...

كُفْرَ قاسِم
إنني عدت من الموت لأحيا لأغني
فدعيني أستعر صوتي من جرح توهَّج
وأعينيني على الحقد الذي يزرع في قلبي عوسج
إنني مندوب جرح لا يساوم
علمتني ضربة الجلاّد أن أمشي على جرحي
وأمشي ..
ثم أمشي ..
وأُقاوم!

٢ ـ حوار في تشرين

أُحاورُ ورقةَ توتْ:

ـ ومن سوء حظ العواصف أنَّ المطر

يعيدك حيَّه،

وأن ضحيتها لا تموت

وأن الأيادي القويّهْ

تكبلها بالوتر!

*

سأدفع مهر العواصف

مزيداً من الحب للوردة الثاكلهْ

وأبقى على قمة التل واقفْ

لأفضح سرَّ الزوابع .. للقافلهْ

*

أُحاور هبّة ريح:
إذا هاجر الزارع الأولُ
وعاث بحنطته القاتلُ
وإن قتلوه كما قتلوني
فلن تحملي الأرض يوماً
ولن تنزعي جلدها عن جفوني

*

سأدفع مهر العواصف
مزيداً من الحب للوردة الثاكلهْ
وأبقى على قمة التل واقف
لأفضح سر العواصف .. للقافلهْ!

*

أُحاور روح الضحيَّهْ:
ومن سوء حظ العواصف أن المطر
يعيدك حيَّهْ ..
ومن حسن حظك أنك أنت الضحيَّهْ
هلا .. يا هلا .. بالمطر!

٣ ـ الموت مجاناً

كان الخريف يمرُّ في لحمي جنازة برتقالْ ..
قمراً نحاسياً تفتته الحجارة والرمال
وتساقط الأطفال في قلبي على مُهج الرجال
كل الوجوم نصيبُ عيني .. كل شيء لا يُقال ..
ومن الدم المسفوك أذرعةٌ تناديني: تعال!

*

فلترفعي جيداً إلى شمس تحنَّت بالدماء
لا تدفني موتاك! .. خَلِّيهم كأعمدة الضياء
خلي دمي المسفوكَ .. لافتة الطغاة إلى المساء
خليهِ نِدّاً للجبال الخضر في صدر الفضاء!

*

لا تسألي الشعراء أن يَرْثُوا زغاليل الخميلةْ
شرف الطفولة أنها
خطر على أمن القبيله
إني أُباركهم بمجد يرضع الدم والرذيلةْ
وأُهنّىءُ الجلاد منتصراً على عينٍ كحيلةْ
كي يستعير كساءه الشتوي من شعر الجديلةْ
مرحى لفاتح قرية! .. مرحى لسفاح الطفولةْ! ..

*

يا كفر قاسم! .. إن أنصاب القبور يد تشدُّ
وتشد للأعماق أغراسي، وأغراس اليتامى إذ تمدُّ
باقون ... يا يدك النبيلة، علمينا كيف نشدو
باقون مثل الضوء، والكلمات، لا يلويهما ألم وقيدُ
يا كفر قاسم!
إن أنصاب القبور يد تشدُّ ..!

٤ ـ القتيل رقم ١٨

غابةُ الزيتون كانت مرةً خضراءَ

كانت .. والسماءْ

غابة زرقاء .. كانت يا حبيبي

ما الذي غيَّرها هذا المساء؟

.. .. ..

أوقَفُوا سيارةَ العمال في منعطف الدرب

وكانوا هادئين

وأداروها إلى الشرق .. وكانوا هادئين

.. .. ..

كان قلبي مَرَّةً عصفورةً زرقاءَ .. يا عش حبيبي

ومناديلك عندي، كلها بيضاء، كانت يا حبيبي

ما الذي لطّخها هذا المساء؟

أنا لا أفهم شيئاً يا حبيبي!

.. .. ..

أوقفوا سيارة العمّال في منتصف الدربِ

وكانوا هادئين

وأداروني إلى الشرق .. وكانوا هادئين

.. .. ..

لكَ مني كلُّ شيء

لكَ ظل لك ضوء

خاتم العرس، وما شئتَ

وحاكورة زيتون وتينِ

وسآتيكَ كما في كل ليلةْ

أدخل الشبّاكَ، في الحلُمِ، وأرمي لَكَ فُلَّه

لا تلمني إن تأخرتُ قليلاً

إنهم قد أوقفوني

غابة الزيتون كانت دائماً خضراء

كانت يا حبيبي

إن خمسين ضحيَّةْ

جعلتها في الغروب ..
بركةً حمراء .. خمسين ضحيَّةْ
يا حبيبي .. لا تلمني ..
قتلوني .. قتلوني ..
قتلوني ..

٥ ـ القتيل رقم ٤٨

وجدوا في صدره قنديلَ وردٍ .. وقمرْ
وهو ملقى، ميتاً، فوق حجرْ
وجدوا في جيبه بعض قروش
وجدوا علبة كبريت، وتصريح سفرْ ..
وعلى ساعده الغض نقوش.

*

قَبَّلَتْهُ أُمُّه ..
وبكت عاماً عليه
بعد عام، نبت العوسج في عينيه
واشتدَّ الظلامِ

*

عندما شبَّ أخوه

ومضى يبحث عن شغل بأسواق المدينه

حبسوه ..

لم يكن يحمل تصريح سفر

إنه يحمل في الشارع صندوق عفونه

وصناديق أُخَر

*

آه؛ أطفالَ بلادي

هكذا مات القمرْ!

٦ ـ عيون الموتى على الأبواب

مروا على صحراء قلبي، حاملين ذراع نخلةْ
مرّوا على زهر القرنفل، تاركين أزيز نحلةْ
وعلى شبابيك القرى رسموا، بأعينهم، أهلَّةْ
وتبادلوا بعض الكلام
عن المحبة والمذلّةْ

ماذا حملتَ لعشر شمعات أضاءت كفر قاسم
غير المزيد، من النشيد، عن الحمائم ..
والجماجم ..؟
هي لا تريدُ .. ولا تعيدُ
رثاءنا.. هي لا تساوم
فوصية الدم تستغيث بأن تُقاوم

*

في الليل دقوا كل باب ..
كل باب .. كل باب
وتوسلوا ألاّ نهيل على الدم الغالي التراب
قالت عيونُهُمُ التي انطفأت لتشعلنا عتاب:
لا تدفِنونا بالنشيد، وخلّدونا بالصمود
إنّا نسمِّد ليلكم لبراعم الضوء الجديد

*

يا كفر قاسم!
من توابيت الضحايا، سوف يعلو
عَلَمٌ يقول: قِفوا! قِفوا! ..
واستوقفوا!
لا، لا تذلوا!
دَيْنُ العواصف أنت قد سدَّدته،
وانهار ظلُّ
يا كفر قاسم! لن ننام .. وفيك مقبرة وليلُ
ووصية الدم لا تساوم
ووصية الدم تستغيث بأن نقاوم
أن نقاوم ..

السجين والقمر

في آخر الليل التقينا تحت قنطرة الجبال

منذ اعتُقِلتُ، وأنت أدرى بالسببْ

ألأنَّ أغنية تدافع عن عبير البرتقال

وعن التحدي والغضب

دفنوا قرنفلة المغني في الرمال؟

*

عَلمانِ نحن، على تماثيل الغيوم الفستقيهْ

بالحب محكومان، باللون المغني؟

كلُّ الليالي السود تسقط في أغانينا ضحيهْ

والضوء يشرب ليل أحزاني وسجني

فتعال، ما زالت لقصتنا بقيهْ!

*

سأحدث السَّجان، حين يراك،
عن حب قديمْ
فلربما وصل الحديث بنا إلى ثمن الأغاني
هذا أنا في القيد أمتشق النجوم
وهو الذي يقتات، حراً، من دخاني
ومن السلاسل والوجوم!

*

كانت هويتنا ملايينا من الأزهار،
كنا في الشوارع مهرجان
الريح منزلنا،
وصوت حبيبتي قُبَلٌ.
وكُنْتَ الموعدا
لكنهم جاؤوا من المدن القديمةِ
من أقاليم الدخان
كي يسحبوها من شراييني،
فعانقت المدى.
والموت والميلاد في وطني المولَّه توأمان!

*

ستموت يوماً حين تغنينا الرسوم عن الشجر

وتباع في الأسواق أجنحة البلابلْ
وأنا سأغرق في الزحام غداً، وأحلم بالمطر
وأحدّث السمراء عن طعم السلاسل
وأقول موعدنا القمر!

يوم

منذ الظهيرة، كان وجه الأفق
مثل جبينك الوهميّ، يغطس في الضبابِ
والظلُّ يجمد في الشوارع
مثل وقفتك الأخيرة عند بابي
وخطاك تعبر، في مكانٍ ما، كهمس في اغترابي!
يا أيها اليوم المسافر في الرمال
أتكنُّ لي بعض المودّه؟!

*

الظل يسند جبهتي
والأفق يشرب من نبيذ الشمس
ما شربت يدي،
في ذات يوم،

من ضفائر شعرك المشدود في جرح الغد
والظلّ يشربني كما شربت عيونُكِ
ضوءَ آخر موعد
يا أول الليل الذي اشتعلت يداه برتقال
أتكنُّ لي بعض المودَّه؟!

*

الباب يغلق مرة أُخرى، ووجهك ليس يأتي
وأنا وأنت مسافران .. ولاجئان، أنا وأنت
ماذا تُسر لك الكواكب؟.. إنها من دون بيت؟
لا تسمعيها!
كان فحم الليل يرسمها على تمثال صمتِ
وأنا وأنت، أنا وأنت
شفتا حنين، كان ملح الانتظار طعامنا
وصداك صوتي
والباب يُغْلَقُ مرةً أخرى، ووجهك ليس يأتي
يا ليل! يا فرس الظلال ..
أتكنُّ لي بعض المودَّه؟!

لا تتركيني

وطني جبينك، فاسمعيني

لا تتركيني

خلف السياج

كعشبةٍ بريةٍ،

كيمامة مهجورةٍ

لا تتركيني

قمراً تعيساً

كوكباً متسولاً بين الغصون

لا تتركيني

حُرّاً بحزني

واحبسيني

بيد تصبُّ الشمس

فوق كُوى سجوني،
وتعوَّدي أن تحرقيني،
إن كنت لي
شغفاً بأحجاري بزيتوني
بشبّاكي ... بطيني!
وطني جبينك، فاسمعيني
لا تتركيني!

إلى ضائعة

إذا مرت على وجهي
أناملُ شعرك المبتلّ بالرملِ
سأنهي لعبتي .. أنهي
وأمضي نحو منزلنا القديم
على خطى أهلي
وأهتف يا حجارة بيتنا! صلّي!

*

إذا سقطتْ على عيني
سحابةُ دمعة كانت تلف عيونك السوداء
سأحمل كل ما في الأرض من حزنٍ
صليباً يكبر الشهداء
عليه، وتصغر الدنيا

ويسقي دمعُ عينيكِ
رمال قصائد الأطفال والشعراء!

*

إذا دقَّت على بابي
يدُ الذكرى
سأحلم ليلة أخرى
بشارعنا القديم وعودة الأسرى
وأشرب مرة أخرى
بقايا ظلك الممتد في بدني
وأومن أن شبّاكاً
صغيراً كان في وطني
يناديني ويعرفني
ويحميني من الأمطار والزمنِ

أغنيات إلى الوطن

١ ـ جبين وغضب

وطني! يا أيها النسرُ الذي يغمد منقار اللهبْ
في عيوني،
أين تاريخ العرب؟
كل ما أملكه في حضرة الموت:
جبين وغضب.
وأنا أوصيت أن يزرع قلبي شجرهْ
وجبيني منزلاً للقُبَّرهْ.
وطني، إنّا ولدنا وكبرنا بجراحك
وأكلنا شجر البلّوط ..
كي نشهد ميلاد صباحك

أيها النسر الذي يرسف في الأغلال من دون سببْ

أيها الموت الخرافيُّ الذي كان يحب
لم يزل منقارك الأحمر في عينيَّ
سيفاً من لهب ..
وأنا لست جديراً بجناحك
كل ما أملكه في حضرة الموت:
جبين .. وغضب!

٢ ـ وطن

علّقوني على جدائل نخلهْ
واشنقوني .. فلن أخون النخلهْ!
هذه الأرض لي .. وكنت قديماً
أحلبُ النوق راضياً وموَلَّهْ
وطني ليس حزمة من حكايا
ليس ذكرى، وليس حقل أهِلَّهْ
وطني ليس قصةً أو نشيداً
ليس ضوءاً على سوالف فُلّهْ
وطني غضبة الغريب على الحزن
وطفلٌ يريد عيداً وقُبلهْ
ورياح ضاقت بحجرة سجن
وعجوز يبكي بنيه .. وحقلهْ

هذه الأرض جلد عظمي

وقلبي ..

فوق أعشابها يطير كنحلهْ

علِّقوني على جدائل نخلهْ

واشنقوني فلن أخون النخلهْ!

٣ ـ لا مفر

مطر على أشجاره ويدي على
أحجاره، والملح فوق شفاهي
وطني! عيونك أم غيومٌ ذوَّبت
أوتار قلبي في جراح إلهِ!
هل تأخذنَّ يدي؟ فسبحان الذي
يحمي غريباً من مذلَّة آهِ
ظلُّ الغريب على الغريب عباءةٌ
تحميه من لسع الأسى التيّاهِ
هل تُلْقِيَنَّ على عراء تشرّدي
أعشاب قبر صار قَبْوَ ملاهِ
لأشمَّ رائحة الذين تنفَّسوا
مهدي .. وعطر البرتقال الساهي

وطني! أُفتِّش عنك فيك فلا أرى
إلّا شقوق يديك فوق جباهِ
وطني أتفتحُ في الخرائب كوة؟
فالملح ذاب على يدي وشفاهي
مطر على الإسفلتِ، يجرفني إلى
ميناءِ موتانا .. وجرحُكَ ناهِ

٤ ـ رد الفعل

وطني! يعلمني حديدُ سلاسلي
عنف النسور، ورقة المتفائلِ
ما كنت أعرف أن تحت جلودنا
ميلادَ عاصفةٍ .. وعرس جداولِ
سَدُّوا عليَّ النورَ في زنزانةٍ
فتوهَّجَتْ في القلب .. شمسُ مشاعلِ
كتبوا على الجدرانْ رقم بطاقتي
فنما على الجدران .. مرج سنابلِ
رسموا على الجدران صورةَ قاتلي
فمحتْ ملامحَها ظلالُ جدائلِ

وحفرتُ بالأسنان رسمك دامياً

وكتبتُ أُغنية العذاب الراحلِ

أغمدت في لحم الظلام هزيمتي

وغرزت في شعر الشموس أناملي

والفاتحون على سطوح منازلي

لم يفتحوا إلّا وعود زلازلي!

لن يبصروا إلّا توهُّج جبهتي

لن يسمعوا إلّا صرير سلاسلي

فإذا احترقت على صليب عبادتي

أصبحت قديساً .. بِزَيّ مُقاتلِ

٥ ـ الموعد

لم تزل شرفةٌ .. هناك
في بلادي، ملوحهْ
ويدٌ تمنحُ الملاك
أغنيات، وأجنحهْ
العصافير أم صداك
أم مواعيدُ مفرحهْ
قتلتني.. لكي أراك؟!

*

وطني! حبنا هلاك
والأغاني مجرحهْ
كلما جاءني نداك
هجر القلب مطرحهْ

وتـــلاقـــى عـــلـــى رُبـــاكْ
بـــالـــجـــروح الـــمـــفـــتـــحـــةْ
لا تـــلـــمـــنـــي فـــفـــي ثـــراكْ
أصـــبـــح الـــحـــب.. مـــذبـــحـــةْ

٦ ـ أحبك أكثر

تَكَبَّرْ .. تَكَبَّرْ!
فمهما يكن من جفاك
ستبقى، بعيني ولحمي، ملاك
وتبقى، كما شاء لي حبنا أن أراكِ
نسيمك عنبر
وأرضك سكّر
وإني أحبك .. أكثر

يداك خمائلْ
ولكنني لا أغني
ككل البلابلْ
فإن السلاسلْ

تعلمني أن أقاتلْ
أقاتلْ .. أقاتلْ
لأني أُحبك أكثر!

غنائي خناجر وردْ
وصمتي طفولة رعد
وزنبقة من دماء
فؤادي،
وأنت الثرى والسماء
وقلبك أخضر ..!
وَجَزْرُ الهوى، فيك، مَدّ
فكيف، إذن، لا أحبك أكثر
وأنت، كما شاء لي حبنا أن أراك:
نسيمك عنبر
وأرضك سكَّر
وقلبك أخضر ..!
وإنِّي طفل هواك
على حضنك الحلو
أنمو وأكبر!

الأغنية والسلطان

لم تكن أكثر من وصفٍ .. لميلاد المطرْ
ومناديل من البرق الذي يشعل أسرار الشجرْ
فلماذا قاوموها؟
حين قالت إن شيئاً غير هذا الماء
يجري في النَّهَرْ؟
وحصى الوادي تماثيلُ، وأشياءُ أُخَرْ
ولماذا عذَّبوها
حين قالت إن في الغابة أسراراً
وسكيناً على صدر القمرْ
ودمَ البلبل مهدورٌ على ذاك الحجرْ؟
ولماذا حبسوها
حين قالت: وطني حبل عرق

وعلى قنطرة الميدان إنسان يموت
وظلام يحترق؟

*

غَضِبَ السلطان
والسلطان مخلوق خيالي
قال: إن العيب في المرآة،
فليخلد إلى الصمت مغنيكم، وعرشي
سوف يمتد
من النيل إلى نهر الفرات!
أسجنوا هذي القصيدهْ
غرفة التوقيف
خير من نشيد .. وجريدهْ

*

أخبِروا السلطان،
أن الريح لا تجرحها ضربة سيفِ
وغيوم الصيف لا تسقي
على جدرانه أعشاب صيفِ
وملايين من الأشجار

تخضرُّ على راحة حرفٍ!

*

غضب السلطانُ، والسلطانُ في كل الصور
وعلى ظهر بطاقات البريد
كالمزامير نقيٌّ وعلى جبهته وشم العبيد،
ثم نادى .. وأمر:
أقتلوا هذي القصيدهْ
ساحة الإعدام ديوان الأناشيد العنيده!

*

أخبِروا السلطان،
أن البرق لا يُحْبَسُ في عُودِ ذُرَهْ
للأغاني منطق الشمس، وتاريخ الجداول
ولها طبع الزلازل
والأغاني كجذور الشجرهْ
فإذا ماتت بأرضٍ،
أزهرت في كل أرضْ

*

كانت الأغنية الزرقاءُ فكرهْ

حاول السلطان أن يطمسها
فغدت ميلاد جمرةْ!
كانت الأغنية الحمراء جمرةْ
حاول السلطان أن يحبسها
فإذا بالنار ثورةْ!

*

كان صوت الدم مغموساً بلون العاصفةْ
وحصى الميدان أفواه جروح راعفةْ
وأنا أضحك مفتوناً بميلاد الرياح
عندما قاومني السلطانُ
أمسكت بمفتاح الصباح
وتلمست طريقي بقناديل الجراحْ
آه كم كنت مصيباً
عندما كرست قلبي
لنداء العاصفةْ
فلتهبَّ العاصفةْ!
ولتهبَّ العاصفةْ!

العصافير
تموت في الجليل
١٩٦٩

لوحة على الجدار

.. ونقول الآن أشياء كثيرهْ
عن غروب الشمس في الأرض الصغيرهْ
وعلى الحائط تبكي هيروشيما..
ليلة تمضي، ولا نأخذ من عالمنا
غير شكل الموت
في عزِّ الظهيرة.

.. ولعينيكِ زمان آخر
ولجسمي قصه أُخرى
وفي الحلم نريد الياسمين،
عندما وزَّعنا العالمُ من قبل سنين
كانت الجدران تستعصي على الفهم

وكان الأسبرين
يُرجع الشبّاك والزيتون والحلم إلى أصحابه
كان الحنين
لعبة تلهيك عن فهم السنين.

.. ونقول الآن أشياء كثيرةْ
عن ذبول القمح في الأرض الصغيرةْ
وعلى الحائط تبكي هيروشيما
خنجراً يلمع كالحقّ، ولا نأخذ عن عالمنا
غير لون الموت
في عزّ الظهيرةْ ..

في اشتعال القُبلة الأولى
يذوب الحزن
والموت يغني
وأنا لا أحزن الآن
ولكني أُغني
أَيُّ جسم لا يكون الآن صوتاً
أَيُّ حزن

لا يضمّ الكرة الأرضية الآن
إلى صدر المغني؟!

.. ونقول الآن أشياء كثيرهْ
عن عذاب العشب في الأرض الصغيرهْ
وعلى الحائط تبكي هيروشيما،
قبلة تُنسى، ولا نأخذ من عالمنا
غير طعم الموت
في عزّ الظهيرهْ ..

ألفُ نهر يركض الآن
وكلُّ الأقوياءْ
يلعبون النرد في المقهى،
ولحمُ الشهداءْ
يختفي في الطين أحياناً
وأحياناً يُسلّي الشعراء!
وأنا يا امرأتي أمتصُّ من صمتك
في الليل .. حليب الكبرياء!

.. ونقول الآن أشياء كثيرةْ
عن ضياع اللون في الأرض الصغيرةْ
وعلى الحائط تبكي هيروشيما
طفلة ماتت. ولا نأخذ من عالمنا
غير صوت الموت
في عزِّ الظهيرةْ ..

قاع المدينة

عشرون أغنيةً عن الموت المفاجىء.

كلّ أغنيةٍ قبيلهْ

ونحب أسباب السقوط

على الشوارع ..

كلّ نافذة خميلهْ.

والموتُ مكتملٌ،

ففي ملءَ الهزيمة يا مدينتنا النبيلهْ..

في كلَّ موت كان موتي

حالةً أُخرى ..

بديلاً كان للغة الهزيلهْ.

(والعائدون من الجنازة عانقوني

كسَّروا ضلعين

وانصرفوا

ومن عاداتهم أن يكذبوا

لكنَّني صدَّقتهم

وخرجتُ من جلدي

لأغرق في شوارعك القتيلهْ)

تتفجرين الآن برقوقاً

وانفجر اعترافاً جارحاً بالحبّ:

لولا الموتُ

كنتِ حجارة سوداء

كنتِ يداً محنَّطة نحيلهْ

لا لون للجدران،

لولا قطرةُ الدم

لا ملامح للدروب المستطيلهْ

(والعائدون من الجنازةِ عانقوني

كسَّروا ضلعين ..

وانصرفوا ..

ومن عاداتهم أن يسأموا

لكنهم كانوا يريدون البقاء ..

خرجتُ من جلدي

وقابلتُ الطفولهْ).

قد صار للإسمنت نبضٌ فيكِ

صار لكل قنطرة جديلهْ

شكراً ـ صليبَ مدينتي

شكراً ..

لقد علّمتنا لون القرنفل والبطولهْ

يا جسرنا الممتدّ من فرح الطفولة ـ

يا صليبُ ـ إلى الكهولهْ

الآن،

نكتشفُ المدينة فيكَ

آهِ ... يا مدينتنا الجميلهْ!..

مطر ناعم في خريف بعيد

مَطَرٌ ناعمُ في خريف بعيدْ
والعصافير زرقاءُ .. زرقاءُ
والأرضُ عيد.
لا تقولي أنا غيمة في المطارْ
فأنا لا أريدْ
من بلادي التي سقطتْ من زجاج القطار
غير منديل أُمي
وأسباب موت جديد.

مطر ناعم في خريف غريبْ
والشبابيك بيضاءُ .. بيضاءُ
والشمسُ بيّارة في المغيب

وأنا برتقالٌ سليب،
فلماذا تفرّين من جَسَدي
وأنا لا أُريد
من بلاد السكاكين والعندليب
غير منديل أُمي
وأسباب موت جديد.

مطر ناعم في خريف حزينْ
والمواعيد خضراءُ ... خضراءُ
والشمسُ طين
لا تقولي رأيناك في مصرع الياسمين
كان وجهي مساء
وموتي جَنين.
وأنا لا أُريد
من بلادي التي نسيتْ لهجة الغائبين
غير منديل أُمي
وأسباب موت جديد.
مطر ناعم في خريف بعيد

والعصافير زرقاءُ .. زرقاءُ
والأرضُ عيد.
والعصافير طارت إلى زمن لا يعود
وتريدين أن تعرفي وطني؟
والذي بيننا؟
ـ وطني لذَّة في القيودْ
ـ قُبلتي أرسلت في البريدْ
وأنا لا أُريد
من بلادي التي ذَبَحَتْني
غير منديل أُمي
وأسباب موت جديد ..

العصافير تموت في الجليل

ـ نلتقي بعد قليلْ

بعد عامٍ

بعد عامين

وجيلْ ..

ورَمَتْ في آلة التصوير

عشرين حديقهْ

وعصافيرَ الجليل.

ومضتْ تبحث، خلف البحر،

عن معنى جديد للحقيقهْ.

ـ وطني حبل غسيل

لمناديل الدم المسفوك

في كل دقيقهْ

وتمددتُ على الشاطئ
رملاً .. ونخيلْ.

هِيَ لا تعرف ـ
يا ريتا! وهبناكِ أنا والموتُ
سِرَّ الفرح الذابل في باب الجماركْ
وتجدَّدنا، أنا والموت،
في قبلتك الأولى
وفي شبّاك دارك.
وأنا والموت وجهان ـ
لماذا تهربين الآن من وجهي
لماذا تهربين؟
ولماذا تهربين الآن ممّا
يجعل القمح رموشَ الأرض، ممّا
يجعل البركان وجهاً آخر للياسمين؟..
كان لا يتعبني في الليل إلّا صمتها
حين يمتدُّ أمام الباب
كالشارع .. كالحيِّ القديمْ

ليكن ما شئت ـ يا ريتا ـ

يكون الصمتُ فأساً

أو براويز نجوم

أو مناخاً لمخاض الشجرهْ.

إنني أرتشف القُبلَة

من حدِّ السكاكين،

تعالي ننتمي للمجزرهْ!..

سقطتْ كالوَرَق الزائد

أسرابُ العصافير

بآبار الزمنْ ..

وأنا أنتشل الأجنحة الزرقاء

يا ريتا،

أنا شاهدةُ القبر الذي يكبرُ

يا ريتا،

أنا مَنْ تحفر الأغلالُ

في جلدي

شكلاً للوطنْ ...

آه ... عبد اللّه

قال عبدُ اللَّه للجلاّد:

جسمي كلماتٌ ودويٌّ

ضاعَ فيه الرعدُ

والبرقُ على السكّين،

والوالي قويٌّ.

هكذا الدنيا ...

وأنتَ الآن يا جلاّدُ أقوى

وُلد اللَّهُ ...

وكان الشرطيُّ! ..

عادةً، لا يخرجُ الموتى إلى النزهةِ

لكنَّ صديقي

كان مفتوناً بها.
كلَّ مساءْ
يتدّلى جسمه، كالغصن، من كل الشقوق
وأنا أفتح شباكي
لكي يدخل عبد اللَّه
كي يجمعني بالأنبياء!..

كان عبد اللَّه حقلاً وظهيرهْ
يُحسن العزف على الموّال،
والموالُ يمتدُّ إلى بغداد شرقاً
وإلى الشام شمالاً
وينادي في الجزيرهْ.
فاجأوهُ مرة يلثم في الموالِ
سيفاً خشبياً .. وضفيرهْ ..
حين قالوا: إن هذا اللحن لُغمٌ
في الأساطير التي نعبدها ـ
قال عبدُ اللَّه:
جسمي كلماتٌ .. ودويٌّ
هكذا الدنيا،

وأنت الآن يا جلاَّد أقوى
وُلد اللَّهُ
وكان الشرطيُّ ...

عادةً ، لا يعمل الموتى،
ولكنَّ صديقي
كان من عادته أن يضع الأقمار
في الطينِ،
وأن يبذر في الأرض سَمَاءْ.
وأنا أفتح شباكي
لكي يدخل عبدُ اللَّه حراً وطليقاً
كالردى والكبرياء ..

كان عبدُ اللَّه حَقْلاً
لم يرثْ عن جدِّه إلّا الظهيرهْ
وانكماشَ الظلِّ والسُّمرةَ
عبدُ اللَّه لا يعرف إلّا
لغة الموَّال، والموَّال مفتونٌ بليلى
أين ليلى؟

لم يجدها في الظهيرهْ.
يركضُ الموَّال في أعقاب ليلى
يقفز الموَّال من دائرة الظل الصغيرهْ
ثم يمتدُّ إلى صنعاء شرقاً
وإلى حمص شمالاً
وينادي في الجزيرهْ:
أين ليلى؟
كان عبد اللَّه يمتدُّ مع الموَّال
والموَّال ممنوعٌ.
يقول السيِّد الجلاّد:
إن البُعْد في الموَّال لغمٌ
في الأساطير التي نعبدها
.. وتدلّى رأس عبد اللَّه
في عزِّ الظهيرهْ.

إه، عبدَ اللَّه
والأمسيةُ الآن بلا موتى
وأنت الآن حلٌّ للحلول
آه .. عبدَ اللَّه

والأسماءُ أجسادٌ

رموز

وفصول

آه .. عبدَ اللَّه،

لا لون ولا شكل لأزهار الأفول

آه .. عبدَ اللّه

لا أَذكر بعد الآن ما كنتَ تقول

آه .. عبدَ اللَّه،

لا تسمعك الأرض

ولا ليلى ..

ولا ظلُّ النخيل.

وُلد اللَّهُ

وكانت شرطةُ الوالي

ومليون قتيل!..

كتابة بالفحم المحترق

مدينتُنا ... حوصرتْ في الظهيرهْ
مدينتُنا اكتشفتْ وجهها في الحصارْ.
لقد كذب اللونُ،
لا شأن لي يا أسيرهْ
بشمسٍ تُلمِّعُ أوسمة الفاتحين
وأحذية الراقصين.
ولا شأن لي يا شوارع إلّا
بأرقام موتاكِ
فاحترقي كالظهيرهْ ..

كأنكِ طالعةٌ من كتاب المراثي.
ثقوبٌ من الضوء في وجهك الساحليّ

تُعيد جبيني إليَّ
وتملأني بالحماس القديم إلى أبويَّ

... وما كنتُ أؤمنُ إلّا
بما يجعل القلب مقهى وسوقْ.
ولكنني خارج من مسامير هذا الصليب
لأبحث عن مصدر آخر للبروق
وشكل جديد لوجه الحبيب.

رأيتُ الشوارع تقتل أسماءها
وترتيبها.
وأنتِ تظلّين في الشرفة النازلهْ
إلى القاع،
عينين من دون وجه
ولكنَّ صوتك يخترق اللوحة الذابلهْ

مدينتُنا حوصرت في الظهيرهْ
مدينتُنا اكتشفت وجهها في الحصار.

ضباب على المرآة

نعرفُ الآن جميع الأمكنهْ
نقتفي آثار موتانا
ولا نسمعهم
ونزيح الأزمنهْ
عن سرير الليلة الأولى، وآه ...

في حصار الدم والشمسِ
يصير الانتظارْ
لغةً مهزومةً ..
أمّي تناديني، ولا أبصرها تحت الغبار
ويموت الماءُ في الغيم، وآه ...

كنت في المستقبل الضاحكِ

جنديِّين،

صرتُ الآن في الماضي وحيد.

كلّ موتٍ فيه وجهي

معطفٌ فوق شهيد

وغطاءٌ للتوابيت، وآه ...

لستُ جنديّاً

كما يُطلب مني،

فسلاحي كلمهْ

والتي تطلبها نفسي

أعارتْ نفسها للملحمهْ

والحروبُ انتشرت كالرمل والشمس، وآه..

بيتُكِ اليومَ له عشرُ نوافذْ

وأنا أبحثُ عن باب

ولا باب لبيتك

والرياح ازدحمتْ مثل الصداقات التي

تكثر في موسم موتك

وأنا أبحث عن بابٍ، وآه ...

لم أجد جسمك في القاموس
يا مَنْ تأخذينْ
صيغة الأحزان من طروادة الأولى
ولا تعترفين
بأغاني إرميا الثاني، وآه ...

عندما ألقوا عليَّ القبض
كان الشهداءْ
يقرأون الوطن الضائع في أجسامهم
شمساً وماء
ويغنّون لجنديٍّ، وآه ...

نعرف الآن جميع الكلمات.
والشعارات التي نحملها:
شمسنا أقوى من الليل
وكل الشهداء
ينبتون اليوم تفاحاً، وأعلاماً، وماء

ويجيئون ..

يجيئون ..

يجيئون ..

وآه ...

ريتا ... أحبيني

في كُلِّ أُمسية، نُخَبِّىءُ في أثينا
قمراً وأغنيةً. ونؤوي ياسمينا
قالت لنا الشرفات:
لا منديلُهُ يأتي
ولا أشواقه تأتي
ولا الطرقات تحترف الحنينا.
نامي! هنا البوليس منتشرٌ
هنا البوليس، كالزيتون، منتشرٌ
طليقاً في أثينا

في الحلم، ينضمُّ الخيالُ إليكِ
تبتعدين عني.

وتخاصمين الأرض
تشتعلين كالشفق المغنّي
ويدايَ في الأغلال.
«سنتوري» بعيد مثل جسمك
في مواويل المغنّي ..
ريتا .. أحبّيني! وموتي في أثينا
مثل عطر الياسمين
لتموت أشواق السجين ..

الحبُّ ممنوعٌ ..
هنا الشرطيُّ والقدر العتيقْ.
تتكسَّر الأصنام إن أعلنتَ حبك
للعيون السود.
قطّاعُ الطريق
يتربصون بكل عاشقة
أثينا .. يا أثينا .. أين مولاتي؟
ـ على السكّين ترقص
جسمها أرض قديمهْ
ولحزنها وجهان:

وجه يابس يرتدُّ للماضي
ووجه غاص في ليل الجريمةْ

والحبُّ ممنوع،
هنا الشرطيُّ، واليونان عاشقة يتيمةْ
في الحلم، ينضمُّ الخيال إليك،
يرتدُّ المغني
عن كل نافذةٍ. ويرتفع الأصيلْ
عن جسمك المحروق بالأغلالِ
والشهواتِ والزمنِ البخيل.
نامي على حلمي. مذاقُك لاذعٌ.
عيناكِ ضائعتان في صمتي
وجسمكِ حافل بالصيف والموت الجميل.
في آخر الدنيا أضمُّكِ
حين تبتعدين ملء المستحيل.
ريتا .. أحبّيني! وموتي في أثينا
مثل عطر الياسمين
لتموت أشواق السجين ..

منفايَ: فلاحون معتقلون في لُغة الكآبهْ
منفايَ: سجّانون منفيّون في صوتي ..
وفي نغم الربابهْ
منفاي: أعياد محنَّطة.. وشمس في الكتابهْ
منفاي: عاشقة تعلّق ثوب عاشقها
على ذيل السحابهْ
منفايَ: كل خرائط الدنيا
وخاتمة الكآبهْ

في الحلم، شفّافٌ ذراعكِ
تحته شمس عتيقهْ
لا لون للموتى ولكني أراهم
مثل أشجار الحديقهْ
يتنازعون عليك،
ضمّيهم بأذرعة الأساطير التي وضعت حقيقهْ
لأبرِّر المنفى، وأسند جبهتي
وأتابع البحث الطويل
عن سرِّ أجدادي، وأوَّل جُثةٍ
كسرتْ حدود المستحيل.

في الحلم شفّافٌ ذراعك
تحته شمس عتيقهْ
ونسيتُ نفسي في خطى الإيقاع
ثلثي قابع في السجن
والثلثان في عشب الحديقهْ
ريتا .. أحبّيني! وموتي في أثينا
مثل عطر الياسمين
لتموت أشواق السجين ..

الحزن صار هوية اليونان،
واليونانُ تبحثُ عن طفولتها
ولا تجد الطفولهْ
تنهار أعمدة الهياكل.
أجمل الفرسان ينتحرون.
والعشّاق يفترقون
في أوج الأنوثة والرجولهْ.
دعني وحزني أيها الشرطيّ،
منتصف الطريق محطّتي،
وحبيبتي أحلى قتيلهْ،

ماذا تقول؟

تريد جثَّتها؟

لماذا؟

كي تقَدِّمَها لمائدة الخليفهْ؟

من قال إنك سيدي

من قال إن الحبَّ ممنوع؟

وإنَّ الآلهةْ

في البرلمانْ؟

وإن رقصتنا العنيفهْ

خطرٌ على ساعات راحتك القليلهْ؟!

الحزن صار هوية اليونان،

واليونانُ تبحثُ عن طفولتها

ولا تجد الطفولهْ.

حتى الكآبة صادرتها شرطةُ اليونان

حتى دمعة العين الكحيلهْ.

في الحلم، تتَّسعُ العيون السودُ

ترتجف السلاسلُ ..

يستقيل الليلُ ..

تنطلق القصيدهْ

بخيالها الأرضيّ،

يدفعها الخيال إلى الأمام.. إلى الأمام

بعُنف أجنحة العقيدهْ

وأراكِ تبتعدين عني

آه .. تقتربين مني

نحو آلهة جديدهْ.

ويدايَ في الأغلال، لكنني

أُداعب دائماً أوتار سنتوري البعيدهْ

وأُثير جسمك ..

تولد اليونان ..

تنتشر الأغاني.

يسترجع الزيتون خضرته ..

يمر البرق في وطني علانيةً

ويكتشف الطفولة عاشقانِ ..

ريتا .. أحبّيني! وموتي في أثينا

مثل عطر الياسمين

لتموت أحزان السجين ..

غريب في مدينة بعيدة

عندما كنتُ صغيراً
وجميلاً
كانت الوردة داري
والينابيع بحاري
صارت الوردة جرحاً
والينابيع ظمأ.
ـ هل تغيَّرتَ كثيراً؟
ـ ما تغيَّرتُ كثيراً
عندما نرجع كالريح
إلى منزلنا
حدّقي في جبهتي
تجدي الورد نخيلا

والينابيع عرق
تجديني مثلما كنتُ
صغيراً
وجميلا ..

على غلاف أسطوانة

ينامُ المغنّي على أسطوانهْ
يخبىء أقماره في خزانهْ
وينسى زمانهْ
وينسى مكانهْ
ويحلم خارج أرض اللغات

وكان مغنّيكِ يحترف الابتسامْ
ويؤمن بالسيف
إن كان غمد السيوف عقيدهْ.
ويحتقر الحبّ،
إن كان مسألةً في قصيدة
وكان ربابة كل الخيامْ

أراد مرايا جديدهْ

فلم يجد الصورة المقنعهْ

أراد ميادين واسعةً

فتاهتْ بها الزوبعهْ.

وحنَّ إلى قيده

كي يفرَّ من الظلّ والقبّعهْ

دعيه يقل ما لديه

من الصمت والتجربهْ

لقد صدئتْ شمسه المتعبهْ

ونام على أسطوانهْ

وخبأ أقماره في خزانهْ.

سقوط القمر

في البال أُغنيةٌ
يا أُخت،
عن بلدي،
نامي
لأكتبها ..

رأيتُ جسمكِ
محمولاً على الزردِ
وكان يرشح ألواناً
فقلتُ لهم:
جسمي هناك
فسدُّوا ساحة البلدِ

كنّا صغيرين،
والأشجار عاليةٌ
وكنتِ أجمل من أُمي
ومن بلدي ...

من أين جاؤوا؟
وكرمُ اللوز سيَّجه
أهلي وأهلك
بالأشواك والكبد!..

إنّا نفكِّر بالدنيا،
على عجلٍ،
فلا نرى أحداً،
يبكي على أحدِ.

وكان جسمكِ مسبيّاً
وكان فمي
يلهو بقطرة شهْدِ
فوق وحل يدي! ...

في البال أُغنيةٌ
يا أخت
عن بلدي،
نامي .. لأحفرها
وشماً على جسدي.

الصوت الضائع في الأصوات

نعرفُ القصة من أوَّلها

وصلاح الدين في سوق الشعارات،

وخالدْ

بيع في النادي المسائيِّ

بخلخال امرأةْ!

والذي يعرف .. يشقى.

ـ نحن أحجارُ التماثيل

وأخشاب المقاعد

والشفاه المطفأةْ ـ

أوقفي نبضكِ يا سيِّدتي!

. يصغر الميدان من طلعته ..

. أسكتوا ..

. باسمنا يستوقف الشمس على حدِّ الرماح

. صفِّقوا

إن تطفئوا تصفيقكم

يرتطم المرّيخ بالأرض

ولا يبقى أحد ..

ـ نحن لا نسمع شيئاً

قد سمعنا ألف عامْ

وتنازلنا عن الأرصفة السمراء

كي نغرق في هذا الزحام.

ونريد الآن أن نرتاحَ

من مهنتنا الأولى،

نريد الآن أن تصغوا لنا

فدعونا نتكلَّم.

نضع الليلةَ حدّاً للوصايهْ.

دمنا يرسم في خارطة الأرض الصريعهْ
كل أسماء الذين اكتشفوا
درب البدايهْ
كي يفروا من توابيت الفجيعهْ.
فدعونا نتكلم
ودعوا حنجرة الأموات فينا
تتكلَّم ..

المزمور الحادي والخمسون بعد المائة

أورْشليمُ! التي ابتعدتْ عن شفاهي ...
المسافات أقربْ
بيننا شارعان، وظَهْرُ إلهِ
وأنا فيك كوكبْ
كائنٌ فيك. طوبى لجسمي المعذَّب!.
يسقط البُعْدُ في ليل بابل
وانتمائي إلى خضرة الموت ـ حقْ
وبكاء الشبابيك ـ حق.
صوتُ حريَّتي قادم من صليل السلاسل
وصليبي يُقاتل!.

أورْشليم! التي عصرت كل أسمائها

في دمي ..
خدعتني اللغات التي خدعتني
لن أُسمّيكِ
إني أذوب، وإنَّ المسافات أقربْ
وإمامُ المُغنّين صُكٌّ سلاحاً ليقتلني
في زمان الحنين المعلّب،
والمزامير صارت حجارةْ
رجموني بها
وأعادوا اغتيالي
قرب بيّارة البرتقالِ ...

أورشليم! التي أخذتْ شكل زيتونةٍ
داميهْ ..
صار جلدي حذاء
للأساطير والأنبياء
بابلي أنت. طوبى لمن جاور الليلة الآتيهْ
وأنا فيكِ أقرب
من بكاء الشبابيك. طوبى
لإمام المغنّين في الليلة الماضيهْ

وإمامُ المغنّين كان. وجسمي كائن

وأنا فيك كوكب.

يسقط البُعْد في ليل بابل

وصليبي يقاتل ..

هلّلويا

هلّلويا ...

هلّلويا ...

امرأة جميلة في سدوم

يأخذُ الموتُ على جسمكِ
شكلَ المغفرهْ،
وبودّي لو أموت
داخل اللذة يا تفاحتي
يا امرأتي المنكسرهْ ..
وبودّي لو أموت
خارجَ العالم .. في زوبعة مندثرة

(للتي أعشقها وجهان:
وجه خارج الكون
ووجه داخل سُدُوم العتيقهْ
وأنا بينهما

أبحث عن وجه الحقيقهْ)

صمتُ عينيكِ يناديني
إلى سكّين نشوهْ
وأنا في أوَّل العمر ..
رأيتُ الصمتَ
والموت الذي يشرب قهوهْ
وعرفتُ الداء
والميناءَ
لكنكِ .. حلوَهْ!..

.. وأنا أنتشر الآن على جسمك
كالقمح، كأسباب بقائي ورحيلي
وأنا أعرف أنّ الأرض أُمي
وعلى جسمك تمضي شهوتي بعد قليلِ
وأنا أعرف أنَّ الحب شيء
والذي يجمعنا، الليلة، شيء
وكلانا كافر بالمستحيلِ.
وكلانا يشتهي جسماً بعيداً

وكلانا يقتل الآخر خلف النافذهْ!

(التي يطلبها جسمي
جميلهْ
كالتقاء الحلم باليقظة
كالشمس التي تمضي إلى البحرِ
بزيٍّ البرتقالهْ ..
والتي يطلبها جسمي
جميلهْ
كالتقاء اليوم بالأمس
وكالشمس التي يأتي إليها البحرُ
من تحت الغلالهْ)

لم نقل شيئاً عن الحبِّ
الذي يزداد موتاً
لم نقل شيئاً
ولكنّا نموت الآن
موسيقى وصمتاً
ولماذا؟

وكلانا ذابلٌ كالذكريات الآن

لا يسأل: من أنتِ؟
ومن أين: أتيتِ؟
وكلانا كان في حطّين
والأيامُ تعتاد على أن تجد الأحياء
موتى ..

أين أزهاري؟
أُريد الآن أن يمتلىء البيتُ زنابقْ
أين أشعاري؟
أريد الآن موسيقى السكاكين التي تقتل
كي يولد عاشق
وأُريد الآن أن أنساكِ
كي يبتعد الموت قليلاً
فاحذري الموت الذي
لا يشبه الموت الذي
فاجأ أُمي ..

(التي يطلبها جسمي

لها وجهان:

وجه خارج الكون

ووجه داخل سْدُوم العتيقةْ

وأنا بينهما

أبحث عن وجه الحقيقةْ).

قراءة في وجه حبيبتي

.. وحين أُحدِّق فيك
أرى مُدناً ضائعهْ
أرى زمناً قرمزياً
أرى سبب الموت والكبرياء
أرى لغةً لم تسجّل
وآلهة تترجل
أمام المفاجأة الرائعهْ.

.. وتنتشرين أمامي
صفوفاً من الكائنات التي لا تُسمّى
وما وطني غيرُ هذي العيون التي
تجعل الأرضَ جسما ..

وأسهر فيك على خنجر
واقفِ في جبين الطفولهْ
هو الموت مفتتح الليلة الحلوة القادمهْ
وأنتِ جميلهْ
كعصفورة نادمهْ ...

.. وحين أحدِّقُ فيكِ
أرى كربلاء
ويوتوبيا
والطفولهْ
وأقرأ لائحة الأنبياء
وسفْر الرضا والرذيلهْ ..
أرى الأرض تلعب
فوق رمال السماءْ
أرى سبباً لاختطاف المساءْ
من البحر
والشرفات البخيلهْ! ..

الـمطر الأول

في رذاذ الـمطر الناعم

كانت شفتاها

وردةً تنمو على جلدي،

وكانت مقلتاها

أُفقاً يمتدّ من أمسي

إلى مستقبلي ..

كانت الـحلوة لي

كانت الـحلوة تعويضاً عن القبر

الذي ضمّ إلـها

وأنا جئتُ إليها

من وميض الـمنجلِ

والأهازيجِ التي تطلع من لـحم أبي

ناراً .. وآها ..

(كان لي في المطر الأوَّلِ

يا ذات العيون السود

بستان ودار

كان لي معطف صوف

وبذار

كان لي في بابك الضائع

ليل ونهار ..)

سألتْني عن مواعيد كتبناها

على دفتر طينْ

عن مناخ البلد النائي

وجسر النازحين

وعن الأرض التي تحملها

في حَبَّة تين،

سألتني عن مرايا انكسرتْ

قبل سنين ..

عندما ودّعتها

في مدخل الميناء

كانت شفتاها

قبلةً

تحفر في جلدي صليب الياسمين...

لا جدران للزنزانة

كعادتها،

أنقذتني من الموت زنزانتي

ومن صدأ الفكر، والاحتيال

على فكرة منهكةْ.

وجدتُ على سقفها وجه حريّتي

وبيّارة البرتقال

وأسماءَ مَنْ فقدوا أمسِ أسماءهم

على تربة المعركةْ

سأعترف الآن،

ما أجملَ الاعترافْ

فلا تحزني أنت يوم الأحد

وقولي لأهل البلد:
سنرجىء حفل الزفافْ
إلى مطلع السنة القادمهْ

تفرّ العصافير من قبضتي
ويبتعد النجم عنّي .. والياسمين
وتنقص أعداد من يرقصون
ويذبل صوتُك قبل الأوان
ولكنّ زنزانتي
كعادتها،
أنقذتني من الموت
زنزانتي ..
وجدتُ على سقفها وجه حريّتي
فشعّ جبينك فوق الجدار ..

الدانوب ليس أزرق

هي لا تعرفه.
كان الزمانْ
واقفاً كالنهر في جثّته
قالت له:
عندي مكان.

كان ذاك اليومُ صيفيّاً
وكان العاشقان
يستردان من الرُّزنامة الأولى
حساب الشمس،
كان الأمس
والحاضر كان ..

هي لا تعرفه.
قالوا لها: يأتي مع النهر
الذي يأتي مع الفجر
وكان التوأمان
ضفّتي نهر .. يسيران معاً
أو يقفان
وهما .. لا يعرفان!..

كان ذاك اليوم حقلاً
من ذبول وحنان.
وهما يقتربان
ويموتان من الموت
ولا يلتقيان ..

هي لا تعرفه
لكنها تشربه كالماء في رمل الزمان
بعد عامين من الهجرةِ
في الهجرةِ
ماتا

في انفجار القُبلة الأولى
وفي جُثّته، كان الزمان
واقفاً كالنهر في جُثّته
قالت له:
عندي مكان ...

ويسدل الستار

عندما ينطفىء التصفيقُ في القاعةِ
والظلُّ يميلْ
نحو صدري ..
يسقط المكياج عن وجه الجليل
ولهذا .. أستقيل!..

أجدُ الليلةَ نفسي
عارياً
كالمذبحةْ
كان تمثيلي بعيداً عن مواويل أبي
كان تمثيلي غريباً عن عصافير الجليل
وذراعي مروحةْ

ولهذا أستقيل.

لقّنوني كلَّ ما يطلبه المخرج
من رقص على إيقاع أكذوبته
وتعبتُ الآن،
علَّقتُ أساطيري على حبلِ غسيل
ولهذا .. أستقيل.

باسمكم، أعترف الآن بأنّ المسرحيهْ
كُتبتْ للتسليهْ
رضي النّقادُ لكنَّ عيون المجدليَّهْ
حَفَرَتْ في جَسَدي
شكلَ الجليل
ولهذا .. أستقيل.

يا دمي ..
فرشاتُهم ترسم لوحاتٍ عن اللدِّ،
وأنت الحبرُ،
ما يافا سوى جلد طبول

وعظامي كالعصا في قبضة المخرج

لكنني أقول:

أتقن الدور غداً يا سيدي

ولهذا .. أستقيل

سيداتي ..

آنساتي ..

سادتي!

سلَّيتكم عشرين عامْ

آن لي أن أرحل اليوم

وأن أهرب من هذا الزحامْ

وأغنّي في الجليل

للعصافير التي تسكن عشَّ المستحيل

ولهذا .. أستقيل

أستقيل

أستقيل ..

حبيبتي تنهض من نومها
١٩٧٠

حبيبتي تنهض من نومها

طفولتي تأخذ، في كفِّها،
زينتها من كل شيء ...
ولا ـ
تنمو مع الريح سوى الذاكره
لو أحصتِ الغيمَ الذي كدَّسوا
على إطار الصورة الفاتره
لكان أُسبوعاً من الكبرياء
وكلُّ عام قبله ساقطٌ
ومستعار من إناء المساء ..
يومَ تدحرجتُ على كل باب
مستسلماً للعالم المشغول
أصابعي تزفر: لا تقذفوا

فُتات يومي للطريق الطويل
بطاقةُ التشريد في قبضتي
زيتونةٌ سوداء
وهذا الوطن
مقصلةٌ أعبدُ سكّينها
إن تذبحوني، لا يقول الزمن
رأيتكم!
وكالة الغوث لا
تسأل عن تاريخ موتي، ولا
تغيِّر الغابة زيتونَها،

*

طفولتي تأخذ، في كفها،
زينتها من أي يوم،
ولا ـ
تنمو مع الريح سوى الذاكرهْ
وإنني أذكر مرآتَها
في أول الأيام، حين اكتسى

جبينها بالبرق، لكنني
أضطهد الذكرى، لأن المسا
يضطهد القلب على بابهِ ..
أصابعي أهديتُها كلَّها
إلى شعاع ضاع في نومها
وعندما تخرج من حلمها
حبيبتي، أعرف درب النهار
أشق درب النهار.

*

كلُّ نساء اللغة الصافيهْ
حبيبتي ..
حين يجيء الربيع
الوردُ منفيٌّ على صدرها
من كل حوض، حالماً بالرجوع
ولم أزل في جسمها ضائعاً
كنكهة الأرض التي لا تضيع

كل نساء اللغة الداميهْ

حبيبتي ..
أقمارها في السماء
والورد محروق على صدرها
بشهوة الموت، لأن المساء
عصفورة في معطف الفاتحين
ولم أزل في ذهنها غائباً
يحضرها في كل موت وحين ..

كل نساء اللغة النائمةْ
حبيبتي ..
تحلمُ أنَّ النهار
على رصيف الليلة الآتيةْ
يشرب ظل الليل والانكسار
من شَرَف الجنديِّ والزانيةْ
تحلم أن الماردَ المستعار
من نومنا، أُكذوبة فانية
وأن زنزانتنا، لا جدار
لها، وأن الحلم طينٌ ونار

كل نساء اللغة الضائعةْ

حبيبتي ..

فتَّشتُ عنها العيون

فلم أجدها.

لم أجد في الشجر

خضرتها ..

فتَّشتُ عنها السجون

فلم أجد إلّا فتاتَ القمر

فتَّشتُ جلدي ..

لم أجد نبضها

ولم أجدها في هدير السكون

ولم أجدها في لغات البشر

*

حبيبةَ كل الزنابق والمفرداتْ

لماذا تموتين قبلي

بعيداً عن الموت والذكريات

وعن دار أهلي؟ ..

لماذا تموتين قبل طلاق النهار

من الليل ..

قبل سقوط الجدار ●

لماذا؟

لكل مناسبة لفظةٌ،

ولكن موتَك كان مفاجأة للكلام

وكان مكافأة للمنافي

وجائزة للظلام

فمن أين اكتشف اللفظة اللائقةْ

بزنبقة الصاعقةْ؟

سأستحلفُ الشمس أن تترجَّل

لتشربني عن كَثَبْ ..

وتفتحَ أسرارها ..

سأستحلف الليل أن يتنصل

من الخنجر الملتهب

ويكشف أوراقه للمغنّي.

*

تفاصيلُ تلك الدقائق

كانت ..

عناوينَ موت معادْ
وأسماءُ تلك الشوارع
كانت ..
وصايا نبيٍّ يُباد.
ولكنني جئت من طرف السنة الماضيهْ
على قنطرهْ ...
ألا تفتحين شبابيك يوم جديد
بعيدٍ عن المقبرهْ؟! ..

لأبطالنا، أنشد المنشدون
وكانوا حجارهْ
وكانوا يريدون أن يرصفوا
بلاطاً لساحاتنا
وصمتاً، لأن السكوت طهارهْ
إذا ازدحم المنشدون

ويبدو لنا حين نطرق باب الحبيب
بأن الجدار وترْ
ويبدو لنا أنه لن يغيب
سوى ليلة الموت، عنّا

ولكننا ننتظر

ألا تقفزين من الأبجديهْ
إلينا، ألا تقفزين؟
فبعد ليالي المطر
ستشرع أُمَّتُنا في البكاء
على بطل القادسيهْ! ..

أُسجِّل دقات قلبك فوق الجفون
وأعصب بالريح حلقي
إذا كثر النائمون ...
ومن ليل كلِّ السجون
أصيح:
أعيدوا لنا بيتها
أعيدوا لنا صمتها
أعيدوا لنا موتها ..

*

عيناك، يا معبودتي، هجرةٌ
بين ليالي المجد والانكسار.

شرَّدني رمشُكِ في لحظة
ثم دعاني لاكتشاف النهار.
عشرون سكّيناً على رقبتي
ولم تزل حقيقتي تائههْ
وجئت يا معبودتي
كلُّ حلمْ
يسألني عن عودة الآلههْ
ـ ترى! رأيت الشمس
في ذات يوم؟
ـ رأيتها ذابلةْ .. تافههْ
في عَربات السبي كنا، ولم
تمطر علينا الشمس إلّا النعاس
كان حبيبي طيباً، عندما
ودّعني ..
كانت أغانينا حواس.

عيناك، يا معبودتي، منفى
نفيتُ أحلامي وأعيادي
حين التقينا، فيهما!.

من يشتري تاريخ أجدادي؟

من يشتري نار الجروح التي

تصهر أصفادي؟

من يشتري الحب الذي بيننا؟

من يشتري موعدنا الآتي؟

من يشتري صوتي ومرآتي؟

من يشتري تاريخ أجدادي؟

بيوم حريَّهْ؟

ـ معبودتي! ماذا يقول الصدى

ماذا تقول الريح للوادي؟

ـ كن طيّباً،

كن مُشرقاً كالردى

وكن جديراً بالجناح الذي

يحمل أولادي ..

ما لون عينيها؟

يقول المساء:

أخضرُ مرتاحُ

على خريف غامض .. كالغناء

والرمشُ مفتاحُ

لما يريد القلب أن يسمعهْ

كانت أغانينا سجالاً هناك

على جدار النار والزوبعهْ

ـ هل التقينا في جميع الفصول؟

ـ كنا صغيرين. وكان الذبول

سيِّدنا

ـ هل نحن عشب الحقول

أم نحن وجهان على الأمسِ؟

ـ الشمس كانت تحتسي ظِلَّنا

ولم نغادر قبضة الشمسِ

ـ كيف اعترفنا بالصليب الذي

يحملنا في ساحة النور؟

ـ لم نتكلم.

نحن لن نعترف

إلّا بألفاظ المسامير!.

عيناك، يا معبودتي، عودة

من موتنا الضائع تحت الحصار

•

كأنني ألقاك هذا المساء
للمرة الأولى ..
وما بيننا
إلّا بدايات. ونهر الدماء
كأنه لم يغسل الجيلا.
أسطورتي تسقط من قبضتي
حجارة تخدش وجه الموت
والزنبق اليابس في جبهتي
يعرف جو البيت.

ـ من يرقص الليلة في المهرجان؟
ـ أطفالنا الآتون
ـ من يذكر النسيان؟
ـ أطفالنا الآتون
ـ من يضفر الأحزان
إكليل ورد في جبين الزمان؟
ـ أطفالنا الآتون
ـ من يضع السكَّر في الألوان؟
ـ أطفالنا الآتون

- ونحن، يا معبودتي،
أي دور
نأخذه في فرحة المهرجان؟
- نموت مسرورين
في ضوء موسيقى
أطفالنا الآتين!..

أنا آتٍ إلى ظلّ عينيك

أنا آتٍ إلى ظلّ عينيك .. آتِ
من خيام الزمان البعيد، ومن لمعان السلاسلْ
أنتِ كل النساء اللواتي
مات أزواجهن. وكل الثواكل
أنتِ
أنتِ العيون التي فرّ منها الصباح
حين صارت أغاني البلابل
ورقاً يابساً في مهبِّ الرياح!

أنا آتٍ إلى ظلّ عينيك ... آتِ
من جلودٍ تحاك السجاجيد منها ... ومن حدقاتِ
عُلّقَت فوق جيد الأميرة عقداً.

أنتِ بيتي ومنفاي .. أنتِ
أنت أرضي التي دمَّرتني
أنت أرضي التي حوَّلتني سماء..
وأنتِ ..
كل ما قيل عنك ارتجال وكذبهْ!

لستِ سمراءَ،
لستِ غزالاً،
ولست الندى والنبيذ،
ولستِ
كوكباً طالعاً من كتاب الأغاني القديمهْ
عندما ارتجَّ صوت المغنين... كنتِ
لغة الدم حين تصير الشوارع غابهْ
وتصير العيون زجاجاً
ويصير الحنين جريمهْ.

لا تموتي على شُرُفات الكآبهْ
كُلُّ لون على شفتيك احتفالْ
بالليالي التي انصرمت... بالنهار الذي سوف يأتي

إجعلي رقبتي عتباتِ التحول،
أولَ سطر بسِفْر الجبال
الجبال التي أصبحت سُلَّماً نحو موتي!
والسياطُ التي احترقت فوق ظهري وظهرك
سوف تبقى سؤال:
أين سمسار كل المنابر؟
أين الذي كان.. كان يلوك حجارة قبري وقبرك.

ما الذي يجعل الكلمات عرايا؟
ما الذي يجعل الريح شوكاً، وفحم الليالي مرايا؟
ما الذي ينزع الجلد عني، ويثقب عظمي؟
ما الذي يجعل القلب مثل القذيفهْ؟
وضلوع المغنّين ساريةً للبيارقْ؟
ما الذي يفرش النار تحت سرير الخليفه؟
ما الذي يجعل الشفتين صواعق؟
غير حزن المصفَّد حين يرى
أُختَه .. أُمَّه .. حبَّه
لعبةً بين أيدي الجنود
وبين سماسرة الخطب الحاميهْ

فيعض القيود .. ويأتي

إلى الموت .. يأتي

إلى ظلِّ عينيك .. يأتي!

أنا آتٍ إلى ظلِّ عينيك .. آتِ

من كتاب الكلام المحنّط فوق الشفاه المعادهْ

أكلتْ فرسي، في الطريق، جرادهْ

مزَّقتْ جبهتي، في الطريق، سحابهْ

صلبتني على الطريق ذبابهْ!

فاغفري لي ..

كل هذا الهوان، اغفري لي

انتمائي إلى هامش يحترق!

واغفري لي قرابهْ

ربطتني بزوبعة في كؤوس الورق

واجعليني شهيد الدفاع

عن العشب

والحب

والسخريهْ

عن غبار الشوارع أو عن غبار الشجر
عن عيون النساء، جميع النساء
وعن حركات الحجر.
واجعليني أُحب الصليب الذي لا يُخبْ
واجعليني بريقاً صغيراً بعينيك
حين ينام اللهب!

أنا آتٍ إلى ظلِّ عينيك .. آتِ
مثل نسر يبيعون ريش جناحهْ
ويبيعون نار جراحهْ
بقناع. وباعوا الوطنْ
بعصا يكسرون بها كلمات المغني.
وقالوا: اذبحوا واذبحوا ..
ثم قالوا: هي الحرب كرٌّ وفرٌّ ..
ثم فروا ..
وفروا ..
وفروا ..
وتباهوا .. تباهوا ..

أوسعوهم هجاء وشتماً، وأودوا بكل الوطن!.
حين كانت يداي السياجَ، وكنتِ حديقةْ
لعبوا النَّرد تحت ظلال النعاسِ
حين كانت سياط جهنم تشرب جلدي
شربوا الخمر نخب انتصار الكراسي!.
حين مرت طوابير فرسانهم في المرايا
ساومونا على بيت شِعر، وقالوا:
ألهبوا الخيل. كل السبايا
أقبلتْ أقبلتْ من خيام المنافي
كذبوا! لم يكن جرحنا غيرَ منبرْ
للذي باعه .. باع حطّين .. باع السيوف ليبني منبرْ
نحو مجد الكراسي!..
أنا آتٍ إلى ظلٍّ عينيك .. آتِ
من غبار الأكاذيب .. آتِ
من قشور الأساطير آتِ
أنت لي .. أنت حزني وأنتِ الفرح
أنتِ جرحي وقوس قزح
أنتِ قيدي وحريَّتي

أنتِ طيني وأسطورتي
أنتِ لي .. أنتِ لي .. بجراحكْ
كل جرح حديقهْ!.
أنت لي .. أنت لي .. بنواحك
كل صوت حقيقهْ.
أنت شمسي التي تنطفىء
وأنتِ ليلي الذي يشتعل
أنت موتي، وأنت حياتي

وسآتي إلى ظلِّ عينيك .. آتِ
وردةً أزهرت في شفاه الصواعق
قبلةً أينعت في دخان الحرائق
فاذكريني .. إذا ما رسمت القمر
فوق وجهي، وفوق جذوع الشجر
مثلما تذكرين المطر
وكما تذكرين الحصى والحديقهْ
وإذكريني،
كما تذكرين العناوين في فهرس الشهداء
أنا صادقتُ أحْذية الصِّبية الضعفاء

أنا قاومتُ كُلَّ عروش القياصرة الأقوياء
لم أبع مهرتي في مزاد الشعار المساوم
لم أذق خبز نائم
لم أُساوم
لم أدق الطبول لعرس الجماجم
وأنا ضائع فيك بين المراثي وبين الملاحم
بين شمسي وبين الدم المستباح
جئت عينيك حين تجمَّد ظلي
والأغاني اشتهت قائليها!

كتابة على ضوء بندقية



شولميت انتظرتْ صاحبها في مدخل البار،
من الناحية الأخرى يمر العاشقون،
ونجوم السينما يبتسمون.
ألف إعلان يقول:
نحن لن نخرج من خارطة الأجداد،
لن نترك شبراً واحداً للاجئين.

*

شولميت انكسرت في ساعة الحائط،
عشرينَ دقيقةْ
وقفتْ، وانتظرت صاحبها
في مدخل البار، وما جاء إليها.

قال في مكتوبه أمس:

«لقد أحرزت، يا شولا، وساماً وإجازهْ

إحجزي مقعدنا السابق في البار،

أنا عطشان، يا شولا، لكأس وشفهْ

قد تنازلتُ عن الموت الذي يورثني المجد

لكي أحبو كطفل فوق رمل الأرصفهْ

ولكي أرقص في البار» ...

من الناحية الأخرى،

يمر الأصدقاء

عرفوا شولا على شاطىء عكا

قبل عامين، وكانوا

يأكلون الذرة الصفراء ..

كانوا مسرعين

كعصافير المساء ..

*

شولميت انكسرت في ساعة الحائط، خمسين دقيقهْ

وقفتْ، وانتظرت صاحبها

شولميت استنشقت رائحة الخروب من بدلته

كان يأتي، آخرَ الأسبوع كالطفل إليها
يتباهى بمدى الشوق الذي يحملهُ
قال لها: صحراء سيناء أضافت سبباً
يجعله يسقط كالعصفور في بلّور نهديها
وقالْ:
ليتني أمتدُّ كالشمس وكالرمل على جسمك،
نصفي قاتل والنصف مقتول،
وزهر البرتقال
جيّدٌ في البيت والنزهة، والعيدُ الذي أطلبه
من فخذك الشائع في لحمي .. مميتٌ
في ميادين القتال!..

*

وأحستْ كفه تفترس الخصر،
فصاحتْ: لستَ في الجبهة..
قالْ:
مهنتي!
قالت له: لكنني صاحبتك
قال: من يحترف القتل هناك

يقتل الحب هنا.

وارتمى في حضنها اللاهث موسيقى،

وغنَّى لغيوم فوق أشجار أريحا..

يا أريحا! أنت في الحلم وفي اليقظة ضدان،

وفي الحلم وفي اليقظة حاربتُ هناك

وأنا بينهما مزَّقت توراتي

وعذبتُ المسيحا ..

يا أريحا! أوقفي شمسك. إنّا قادمون

نوقف الريح على حد السكاكين،

إذا شئنا، وندعوك إلى مائدة القائد،

إنّا قادمون ..

*

وأحسَّت يده تشرب كفَّيها. وقال

عندما كان الندى يغسل وجهين بعيدين

عن الضوء: أنا المقتولُ والقاتل

لكنَّ الجريدةْ

وطقوس الاحتفال

تقتضي أن أسجن الكذبة في الصدر،

وفي عينيك، يا شولا، وأن أمسح رشّاشي
بمسحوق عقيدهْ!
أغمضي عينيك لن أقوى على رؤية
عشرين ضحيّهْ
فيهما تستيقظ الآن. وقد كنتِ بعيدهْ
لم أُفكِّرْ بكِ.. لم أخجل من الصمت الذي
يولد في ظل العيون العسليّهْ
وأُصولُ الحرب لن تسمح أن أعشق
إلّا البندقيّهْ!..

*

سألته شولميتْ:
ومتى نخرج من هذا الحصار؟
قال، والغيمة في حنجرته:
أي أنواع الحصار؟
فأجابتْ: في صباح الغد تمضي،
وأنا أشرح للجيران أن الوهلة الأولى
خداع للبصرْ ..
نحن لا ندفع هذا العَرق الأحمر ..

هذا الدم لا ندفعه،

من أجل أن يزداد هذا الوطن الضاري.. حجر.

قال: إنَّ الوقت مجنون،

ولَم يلتئم الليلة جسمانا

دعيني ..

أذُبِ الآن بجسم الكستنا والياسمين

أنت ـ يا سيدتي ـ فاكهتي الأولى.

وناما ..

وبكى في فرح الجسمين، في عيدهما لون القمر

*

شولميت استسلمت للذكرياتْ

كل روَّاد المقاهي والملاهي شبعوا رقصاً

وفي الناحية الأخرى، تدوخ الفتيات

بين أحضان الشباب المتعبين.

وعلى لائحة الإعلان يحتدُّ وزير الأمن:

لن نُرجع شبراً واحداً للاجئين ..

والفدائيون مجتثون. منذ الآن

لن يُخمش جنديٌّ. ومن مات

على تربة هذا الوطن الغالي
له الرحمة والمجد.. ورايات الوطن!

*

شولميت اكتشفت أنَّ أغاني الحرب
لا توصل صمت القلب والنجوى إلى صاحبها
نحن في المذياع أبطال
وفي التابوت أطفال
وفي البيت صُوَرْ ..
ـ ليتهم لم يكتبوا أسماءنا
في الصفحة الأولى،
فلن يُولدَ حيٌّ من خبر ..
ـ وعدوا موتَك بالخلد، بتمثال رخام
وعدوا موتك بالمجد، ولكن رجال الجنرال
سوف ينسونك في كل زحام
وسينسونك في كل احتفال ..

*

شولميت اكتشفت أن أغاني الحرب
لا توصل صمت القلب والنجوى إلى صاحبها.

فجأة، عادت بها الذكرى
إلى لذّتها الأولى، إلى دنيا غريبةْ
صدَّقتْ ما قال محمود لها قبل سنين
ـ كان محمود صديقاً طيِّب القلب،
خجولاً كان، لا يطلب منها
غير أن تفهم أنَّ اللاجئين
أُمةٌ تشعر بالبرد،
وبالشوق إلى أرض سليبةْ
وحبيباً صار فيما بعد،
لكنَّ الشبابيك التي يفتحها
في آخر الليل .. رهيبةْ
كان لا يغضبها، لكنه كان يقولْ
كلماتٍ تُوقعُ المنطقَ في الفخِّ،
إذا سرت إلى آخرها
ضقتَ ذرعاً بالأساطير التي تعبدها
وتمزَّقتَ، حياء، من نواطير الحقول ..
صدَّقتْ ما قال محمود لها قبل سنين
عندما عانقها، في المرة الأولى، بكتْ

من لذة الحب .. ومن جيرانها
كُلُّ قومياتنا قشرةُ مَوْزٍ،
فكَّرتْ يوماً على ساعدِهِ،
وأتى سيمون يحميها من الحب القديم
ومن الكفر بقوميتها.

*

كان محمود سجيناً يومها
كانت «الرملةُ» فردوساً له .. كانت جحيم.
كانت الرقصة تُغريها بأن تهلك في الإيقاع،
أن تنعس، فيما بعد، في صدر رحيم.
سكر الإيقاع. كانت وحدها في البار
لا يعرفها إلّا الندم.
وأتى سيمون يدعوها إلى الرقص
فلبَّتْ
كان جندياً وسيم
كان يحميها من الوحدة في البار،
ويحميها من الحب القديم
ومن الكفر بقوميتها..

*

شولميت انتظرتْ صاحبها في مدخل البار القديم
شولميت انكسرت في ساعة الحائط ساعات ...
وضاعت في شريط الأزمنهْ
شولميت انتظرتْ سيمون ـ لا بأس إذن
فليأتِ محمود .. أنا أنتظر الليلة عشرين سنهْ
كل أزهاركَ كانت دعوة للانتظار
ويداك الآن تلتفّان حولي
مثل نهرين من الحنطة والشوك.
وعيناك حصار
وأنا أمتد من مدخل هذا البار
حتى عَلَمِ الدولة، حقلاً من شفاهٍ دمويَّهْ:
أين سيمون ومحمود؟
من الناحية الأخرى
زهورٌ حجريَّهْ
ويمر الحارس الليلي،
والإسفلتُ ليل آخر
يشربُ أضواء المصابيح،
ولا تلمع إلّا بندقيَّهْ ...

يوميات جرح فلسطيني



[إلى فدوى طوقان]

- ١ -

نحن في حِلٍّ من التذكار

فالكرمل فينا

وعلى أهدابنا عشب الجليلِ

لا تقولي: ليتنا نركض كالنهر إليها،

لا تقولي!

نحن في لحم بلادي.. وَهْيَ فينا!

- ٢ -

لم نكن قبلَ حزيرانَ كأفراخ الحمام

ولذا، لم يتفتَّتْ حبنا بين السلاسلْ

نحن يا أُختاه، من عشرين عام

نحن لا نكتب أشعاراً،
ولكنا نقاتل

- ٣ -

ذلك الظل الذي يسقط في عينيك
شيطان إله
جاء من شهر حزيران
لكي يعصب بالشمس الجباهْ
إنه لون شهيد
إنه طعم صلاهْ
إنه يقتل أو يحيي،
وفي الحالين! آه!

- ٤ -

أوَّلُ الليل على عينيك، كان
في فؤادي، قطرةً من آخر الليل الطويل
والذي يجمعنا، الساعةَ، في هذا المكان
شارعُ العودة
من عصر الذبول.

- ٥ -

صوتك الليلةَ،
سكينٌ وجرحٌ وضمادُ

ونعاس جاء من صمت الضحايا

• أين أهلي؟

خرجوا من خيمة المنفى، وعادوا

مرة أُخرى سبايا!

- ٦ -

كلمات الحب لم تصدأ، ولكن الحبيبْ

واقعٌ في الأسر - يا حبي الذي حمَّلني

شرفاتٍ خلعتْها الريحُ ..

أعتابَ بيوت

وذنوب.

لم يسع قلبي سوى عينيك،

في يوم من الأيام،

والآن اغتنى بالوطنِ!

- ٧ -

وعرفنا ما الذي يجعل صوت القُبَّرةْ

خنجراً يلمع في وجه الغزاة

وعرفنا ما الذي يجعل صمت المقبرةْ

مهرجاناً .. وبساتينَ حياة!

- ٨ -

عندما كنت تغنين، رأيت الشرفات
تهجر الجدران
والساحة تمتد إلى خصر الجبلْ
لم نكن نسمع موسيقى،
ولا نبصر لونَ الكلمات
كان في الغرفة مليون بطل!

- ٩ -

في دمي، من وجهه، صيفٌ
ونبض مستعارُ.
عدتُ خجلانَ إلى البيت،
فقد خرَّ على جرحي.. شهيدا
كان مأوى ليلة الميلاد
كان الانتظار
وأنا أقطف من ذكراه .. عيدا!

- ١٠ -

الندى والنار عيناه،
إذا ازددت اقتراباً منه غنَّى

وتبخرت على ساعده لحظة صمت، وصلاه

آه سمّيه كما شئتِ شهيدا

غادر الكوخ فتى

ثم أتى، لما أتى

وجه إله!

- ١١ -

هذه الأرض التي تمتصُّ جلد الشهداءْ

تَعِدُ الصيف بقمح وكواكبْ

فاعبديها!

نحن في أحشائها ملحٌ وماء

وعلى أحضانها جرح .. يحارب

- ١٢ -

دمعتي في الحلق، يا أُخت،

وفي عينيَّ نار

وتحررت من الشكوى على باب الخليفه

كل من ماتوا

ومن سوف يموتون على باب النهار

عانقوني، صنعوا مني ... قذيفه!

- ١٣ -

منزل الأحباب مهجور،
ويافا تُرجمتْ حتى النخاع
والتي تبحث عني
لم تجد مني سوى جبهتها
أُتركي لي كل هذا الموت، يا أُخت.
أُتركي هذا الضياع
فأنا أضفره نجماً على نكبتها

- ١٤ -

آه يا جرحي المكابر
وطني ليس حقيبهْ
وأنا لست مسافر
إنني العاشق، والأرض حبيبهْ!

- ١٥ -

وإذا استرسلت في الذكرى!
نما في جبهتي عشب الندمْ
وتحسرت على شيء بعيدْ
وإذا استسلمت للشوق،

تَبَنَّيْتُ أساطير العبيد
وأنا آثرت أن أجعل من صوتي حصاة
ومن الصخر نغم!

- ١٦ -

•
جبهتي لا تحمل الظل،
وظلي لا أراه
وأنا أبصق في الجرح الذي
لا يشعل الليل جباه!
خبئي الدمعة للعيد
فلن نبكي سوى من فرح
وَلْنُسَمِّ الموت في الساحة
عرساً .. وحياه!

- ١٧ -

وترعرعتُ على الجرح، وما قلت لأمي
ما الذي يجعلها في الليل خيمةْ
أنا ما ضيَّعتُ ينبوعي وعنوانيَ واسمي
ولذا أبصرت في أسمالها
مليون نجمةْ!

- ١٨ -

رايتي سوداءُ،
والميناء تابوتٌ
وظهري قنطرهْ
يا خريف العالم المنهار فينا
يا ربيع العالم المولود فينا
زهرتي حمراءُ،
والميناء مفتوح،
وقلبي شجرهْ!

- ١٩ -

لغتي صوت خرير الماء
في نهر الزوابعْ
ومرايا الشمس والحنطة
في ساحة حربٍ
ربما أخطأت في التعبير أحياناً
ولكنْ كنت ـ لا أخجل ـ رائع
عندما استبدلت بالقاموس قلبي!

- ٢٠ -

كان لا بد من الأعداء

كي نعرف أنّا توأمان!
كان لا بد من الريح
لكي نسكن جذع السنديان!
ولو أن السيد المصلوب لم يكبر على عرش الصليب
ظلَّ طفلاً ضائع الجرح.. جبان.

- ٢١ -

لك عندي كلمةْ
لم أقلها بعد،
فالظل على الشرفة يحتلُّ القمرْ
وبلادي ملحمةْ
كنت فيها عازفاً.. صرت وترْ!

- ٢٢ -

عالِمُ الآثار مشغول بتحليل الحجارةْ
إنه يبحث عن عينيه في ردم الأساطير
لكي يثبت أني:
عابر في الدرب لا عينان لي!
لا حرف في سفْر الحضارةْ!
وأنا أغرس أشجاري، على مهلي،
وعن حبي أغني!

- ٢٣ -

غيمة الصيف التي .. يحملها ظهر الهزيمةْ
عَلَّقَتْ نسل السلاطين
على حبل السراب
وأنا المقتول والمولود في ليل الجريمةْ
ها أنا ازددت التصاقاً .. بالتراب!

- ٢٤ -

آن لي أن أبدل اللفظة بالفعل، وآنْ
ليَ أن أثبت حبي للثرى والقُبَّرهْ
فالعصا تفترس القيثار في هذا الزمان
وأنا أصفَرُّ في المرآة،
مذ لاحت ورائي شجرهْ!

الـجسر



مشياً على الأقدام،
أو زحفاً على الأيدي نعودُ
قالوا ..
وكان الصخر يضمر

والمساءُ يداً تقودُ ..

لم يعرفوا أن الطريق إلى الطريق
دمٌ، ومصيدة، وبيدُ
كل القوافل قبلهم غاصت،
وكان النهر يبصق ضفَّتيه
قطعاً من اللحم المفتَّت،
في وجوه العائدين

كانوا ثلاثة عائدين:

شيخ، وابنته، وجندي قديم

يقفون عند الجسر..

(كان الجسر نعساناً، وكان الليل قبَّعةً.

وبعد دقائق يصلون، هل في البيت ماء؟

وتحسس المفتاح ثم تلا من القرآن آية...)

قال الشيخ منتعشاً: وكم من منزل في الأرض

يألفه الفتى

قالت: ولكن المنازل يا أبي أطلالُ!

فأجاب: تبنيها يدانِ ...

ولم يتمَّ حديثه، إذ صاح صوت في الطريق: تعالوا!

وتلته طقطقة البنادق ..

لن يمرَّ العائدون

حرس الحدود مرابطٌ

يحمي الحدود من الحنين

(أمرٌ بإطلاق الرصاص على الذي يجتاز

هذا الجسر. هذا الجسرُ مقصلةُ الذي رفض

التسول تحت ظل وكالة الغوث الجديدة.

والموتَ بالمجان تحت الذل والأمطار، من
يرفضْهُ يقتلْ عند هذا الجسرِ، هذا الجسرُ
مقصلة الذي ما زال يحلم بالوطن)
الطلقةُ الأولى أزاحت عن جبين الليل
قبعةَ الظلام
والطلقةُ الأخرى ..
أصابت قلب جندي قديم
والشيخ يأخذ كف ابنته ويتلو
همساً من القرآن سورةْ
وبلهجة كالحلم قال:
ـ عينا حبيبتيَ الصغيرةْ،
ليَ، يا جنود، ووجهها القمحي لي
لا تقتلوها، واقتلوني
(كانت مياه النهر أغزر ... فالذين
رفضوا هناك الموت بالمجان أعطوا النهر لوناً آخراً.
والجسر، حين يصير تمثالاً، سيُصبغ ـ دون
ريب ـ بالظهيرة والدماء وخضرة الموت
المفاجىء).

.. وبرغم أن القتل كالتدخين ..

لكنَّ الجنود «الطيِّبين»،

الطالعين على فهارس دفترٍ ..

قذفته أمعاء السنين،

لم يقتلوا الاثنين ..

كان الشيخ يسقط في مياه النهر ..

والبنتُ التي صارت يتيمهْ

كانت ممزقة الثياب،

وطار عطر الياسمين

عن صدرها العاري الذي

ملأته رائحة الجريمهْ

والصمتُ خيَّم مرة أخرى،

وعاد النهر يبصق ضفَّتيه

قطعاً من اللحم المفتَّت

.. في وجوه العائدين

لم يعرفوا أن الطريق إلى الطريق

دم ومصيدة. ولم يعرف أحد

شيئاً عن النهر الذي

يمتص لحم النازحين

(والجسر يكبر كل يوم كالطريق،

وهجرة الدم في مياه النهر تنحت من حصى

الوادي تماثيلاً لها لون النجوم، ولسعة الذكرى،

وطعم الحب حين يصير أكثر من عبادهْ).

جواز سفر

لم يعرفوني في الظلال التي
تمتصُّ لوني في جواز السفرْ
وكان جرحي عندهم معرضاً
لسائح يعشق جمع الصور
لم يعرفوني، آه.. لا تتركي
كفي بلا شمسٍ،
لأن الشجر
يعرفني ..
تعرفني كل أغاني المطر
لا تتركيني شاحباً كالقمر!

*

كلُّ العصافير التي لاحقتْ

كفي على باب المطار البعيد

كل حقول القمح،

كل السجون،

كل القبور البيض

كل الحدود،

كل المناديل التي لوَّحتْ،

كل العيونِ

كانت معي، لكنهم

قد أسقطوها من جواز السفر!

*

عارٍ من الاسم، من الانتماءْ؟

في تربة ربَّيتها باليدينْ؟

أيوب صاح اليوم ملءَ السماء:

لا تجعلوني عبرة مرتين!

يا سادتي! يا سادتي الأنبياء

لا تسألوا الأشجار عن اسمها

لا تسألوا الوديان عن أُمها

من جبهتي ينشق سيف الضياء

ومن يدي ينبع ماء النهر

كل قلوب الناس .. جنسيتي

فلتُسقطوا عني جواز السفر!

الرجل ذو الظل الأخضر

(في ذكرى جمال عبد الناصر)

نَعيشُ معكْ
نسير معك
نجوع معك
وحين تموت
نحاول ألّا نموت معك!

ولكن،
لماذا تموت بعيداً عن الماء
والنيل ملء يديكْ؟
لماذا تموت بعيداً عن البرق
والبرق في شفتيك؟
وأنت وعدت القبائلْ

برحلة صيف من الجاهليهْ
وأنت وعدت السلاسل
بنار الزنود القويهْ
وأنت وعدت المقاتل
بمعركة .. ترجع القادسيهْ

نرى صوتك الآن ملءَ الحناجرْ
زوابع
تلوَ
زوابع ..
نرى صدرك الآن متراس ثائرْ
ولافتة للشوارع
نراك
نراك
نراك ..
طويلاً
.. كسنبلةٍ في الصعيد
جميلاً
.. كمصنع صهر الحديد
وحرّاً

.. كنافذة في قطار بعيد ..

ولستَ نبيّاً،

ولكن ظلَّك أخضر

أتذكر؟

كيف جعلت ملامح وجهي

وكيف جعلت جبيني

وكيف جعلت اغترابي وموتيَ

أخضر

أخضر

أخضر ..

أتذكر وجهي القديم؟

لقد كان وجهي يُحنَّط في متحف إنجليزي

ويسقط في الجامع الأمويّ

متى يا رفيقي؟

متى يا عزيزي؟

متى نشتري صيدليهْ

بجرح الحسين.. ومجد أُميَّهْ

ونُبعث في سدِّ أسوان خبزاً وماء

ومليون كيلواط من الكهرباء؟
أتذكر؟
كانت حضارتنا بدوياً جميل
يحاول أن يدرس الكيمياء
ويحلم تحت ظلال النخيل
بطائرة .. وبعشر نساء
ولست نبيّاً
ولكن ظلَّك أخضر ..
نعيش معك
نسير معك
نجوع معك
وحين تموت
نحاول ألّا نموت معك
ففوق ضريحك ينبت قمحٌ جديد
وينزل ماء جديد
وأنت ترانا
نسير
نسير
نسير.

صدر للشاعر

- أوراق الزيتون
- عاشق من فلسطين
- آخر الليل
- حبيبتي تنهض من نومها
- العصافير تموت في الجليل
- أُحبك، أو لا أُحبك
- محاولة رقم ٧
- تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق
- أعراس
- مديح الظل العالي
- حصار لمدائح البحر
- هي أُغنية، هي أُغنية
- ورد أَقل
- مأساة النرجس، ملهاة الفضة
- أرى ما أريد
- أحد عشر كوكباً
- ديوان محمود درويش (جزآن)

وعن
«رياض الريّس للكتب والنشر»

الأعمال الجديدة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤

لا تعتذر عما فعلت

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

الطبعة الثانية: شباط/فبراير ٢٠٠٤

لماذا تركت الحصان وحيداً

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥

الطبعة الثالثة شباط/ فبراير ٢٠٠١

سرير الغريبة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠٠

جدارية

الطبعة الأولى حزيران/ يونيو ٢٠٠٠

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠١

حالة حصار

الطبعة الأولى نيسان/ أبريل ٢٠٠٢

الطبعة الثانية حزيران/ يونيو ٢٠٠٢



محمود درويش

الديوان

الأعمال الأولى 1





